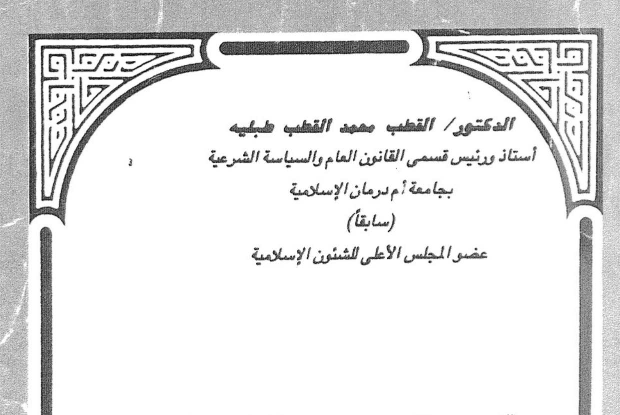


الدكتور/ القطب محمد القطب طبليه

أستاذ ورئيس قسمى القانون العام والسياسة الشرعية

بجامعة أم درمان الإسلامية

(سابقاً)

عضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

روّاد الفكر الإسلامى

فى العصر الحديث

(١)

محمد فريد وجدى

وحسن استعمال الحرية

الدكتور/ القطب محمد القطب طبليه
أستاذ ورئيس قسمى القانون العام والسياسة الشرعية
بجامعة أم درمان الإسلامية
(سابقاً)
عضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

روّاد الفكر الإسلامى

فى العصر الحديث



(١)

محمد فريد وجدى
وحسن استعمال الحرية

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤١٥ هـ ١٩٩٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الافتتــــاح

﴿ الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ﴾

(٥٩ - النمل)

﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾

(١٢٨ - النحل)

الإهـداء

إلى فقيهين عظيمين، وإمامين جليلين ..

وإلى أرض طيبة مباركة : أرض الفسطاط وجامع عمرو بن العاص، حيث كنت أسكن ، ولفترة غير قصيرة، فى مكان مرتفع، وكان ضريحاهما فى مرمى بصرى ..

وكان علمُهما وفقهُهُما – دائما وسيبقى – محل اهتمامى وتقديرى

وإلى رفيق أثير، كان مازال صبيا، حين كنا نتردد على مسجديهما تبركاً وتيمّنا، إلى ذكريات غالية ..

إلى أرواح : محمد بن إدريس الشافعى ، والليث بن سعد، والشهيد – ابنى الحبيب – محمد قطب.

أهـدى هـذه الدراسـة.

كتاب كريم

من المفكر الإسلامي الكبير، العالم الفاضل الجليل

الأستاذ أنور الجندي

سيدى الاستاذ الدكتور/ القطب محمد القطب طبليه

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد فإنى اشكر لك تفضلك باختيارى لقراءة المخطوطة التى كتبتموها سيادتكم عن العلامة محمد فريد وجدى .

وقد سعدت فعلاً بهذه القراءة وافدت كثيراً من المعلومات الجديدة التى تفضلت بتنسيقها فى هذه الدراسة . والحق يا سيدى الجليل أنك أضفت كثيراً إلى دراستى ودراسة الأستاذ الحاجرى، ولا ريب أن هذا فضل كبير منكم أن تعكفوا على دراسة هذا النموذج الطيب من المصلحين والمفكرين الإسلاميين «ولا شك فى أن «فريد وجدى» جدير بأن يدرس فى هذا العصر» . وقد بدا طابع رجل القانون واضحاً فى تصوير شخصية «وجدى» على هذا النحو الباهر وهو إضافة طيبة لحياة الرجل وعمله، ومن أهم ذلك ما سجله من رسالته إلى مصطفى كامل عن تقرير لورد كرومر والحوار الذى دار بينهما .

هذا وبالله التوفيق،

٥ جمادى الأخرة ١٤١٣ — أنور الجندى



محمد فريد وجدى

تعريف

كنت فى نحو السابعة عشر، حين بدأت أتعرف على صناع الفكر الحديث والمعاصر فى مصر وغيرها، ومنهم العلامة والفيلسوف «محمد فريد وجدى» .

فى هذه السن أقبلت على ما وراء الكتب المدرسية، التى كانت طاقاتى وطموحاتى تتسع لها وتسعد بها، وتتسع - كذلك - وتسعد بالقراءة الحرة فى المجلات الأسبوعية والشهرية الراقية . وفى الوقت نفسه كنت أتردد على مكتبة بلدية طنطا لأقرأ الكتب النفيسة وعالية المستوى للشيخ محمد عبده وغيره .

وفى العشرين من عمرى عانيت من مرض أرهقنى وأزعجنى، ولم ينقذنى منه - بعد فضل الله - إلا العلاج الطبيعى . وكان لما كتبه وجدى فى «دائرة المعارف» عن هذا العلاج إسهاماً فى تحسن صحتى .

وفى كتابى «الإسلام وحقوق الإنسان - دراسة مقارنة» والذى ظهرت طبعته الأولى عام ١٩٧٦ - فيه أكثر من إشارة إلى وجدى (كما جاء فى ثنايا هذه الدراسة) .

وفى عامى ١٩٦٤ ، ١٩٦٥ ترددت كثيراً على المكتبة العامة بباب الخلق، واطلعت على أعداد من الدستور، (الصحيفة اليومية السياسية) لصاحبها ومديرها «محمد فريد وجدى» . واستعرت من الدار - كذلك - نسخة من «الوجديات» ولخصتهما . ومن هذه وهذه تبينت صفات الرجل وسماته واتجاهاته . وفى وريقات وكراسات سجلت ما استطعت مما قرأت .

كان فى النية أن أتابع ما كتب وجدى، وما كُتب عنه - فى حدود ما تستدعيه الدراسة لأخرج عنه كتاباً كبيراً بعنوان «أمة فى رجل» وقد صرفتنى عما أزمعت شواغل علمية وجامعية. كن «وجدى» والكتابة عنه لم يغيبا عن البال قط .

وبعد ثلاثين عاماً إلا قليلاً (أى فى العام ١٩٩٢ وبعض من العام الذى قبله) عدت إلى لوريقات والكراسات، وزرت الهيئة العامة للكتاب بكورنيش النيل مرات تعد على أصابع اليد واحدة، لأتابع الاطلاع على «الدستور» الذى تمزقت - مع الأسى البالغ - الأعداد الأولى منه ، ممزق .

لقد تقدمت بى السن وتواضع المطلب، ورحم الله امرءاً عرف قدر نفسه . لم يكن من المتاح والمستطاع إلا هذا الكتاب الصغير الذى يحمل عنوان «محمد فريد وجدى - وحسن استعمال الحرية» وهو الحلقة الأولى من سلسلة أرجو أن أنشرها - تحت عنوان : «رواد الفكر الإسلامى - فى العصر الحديث» .

والفصل الأول من الكتاب (وهو مدخل للدراسة) عن «الدولة من منظور إسلامى»، والفصل الثانى منه بعنوان «وقولوا للناس حُسنا» وفيه عرض لبعض ما جاء فى الكتاب والسنة عن الدعوة إلى الله، «والنصح» أى النقد بالتى هى أحسن . والفصل الثالث عن «محمد فريد وجدى - المثل الحى للعالم المسلم» . أما الرابع والأخير (وهو الجزء الأساسى من الكتاب) فعن «محمد فريد وجدى وحُسن استعمال الحرية» . وللكتاب ملحق عن «وجديات وجدى» .

وفى ختام هذا التعريف أذكر بالشكر وصالح الدعوات الإخوة الذين عاونونى بدار الكتب بباب الخلق، وكذلك الأبناء الذين قدموا إلىّ كل ما طلبت بالهيئة العامة للكتاب . ومع الحمد والشكر لله على ما يسر، أتجه إليه بصالح الدعاء لزوج كريمتى الأستاذ/ مصطفى محمد كامل مراد، الخبير السياسى والاقتصادى ورجل الأعمال، ومدير عام الشركة العربية المشتركة للاستثمار ولحفيدى الدكتور (صيدلى) محمد أحمد صالح، لما قدما ويقدمان إلىّ من عون فى هذا العمل وغيره . يستجيب الله دعواتى الصالحة وتمنياتى الطيبة لهما .

المؤلف

المعادى ١٥ من المحرم ١٤١٣ هـ   ١٦ / ٧ / ١٩٩٢ م [١]

---

(١) بعد عامين إلا قليلاً من هذا التاريخ قدمت الكتاب للطبع «وما تشاءون إلا أن يشاء الله». (الآية ٣٠ من - الإنسان).

الفصل الأول

الدولة من منظور إسلامى

(١)

ليس هناك ما يؤرق الباحثين والعاملين فى مجالات القانون الدستورى وحقوق الإنسان كما يؤرقهم هذان «النوعان من الانحراف» - انحراف الحكام والولاة بصلاحياتهم (وهو ما يعبر عنه فى الفقه الحديث بسوء استعمال السلطة) - وانحراف الأفراد وتهورهم فى ممارساتهم للحرية (وهو ما يعرف بسوء استعمال الحرية) - والدساتير الجديرة بهذا الاسم - تنص فى صلبها على الهياكل والضوابط والشروط والحدود للموازنة والمعادلة والمعالجة لهذين الأمرين جميعاً . ومن منظور إسلامى، وهو منظور النزاهة والطهارة والسمو - يلاحظ الباحثون والمراقبون ما يعتور النظم السياسية الغربية ويعيبها من طغيان «سلطان المال» وانحرافات وسائل الدعاية والإعلام، وخاصة فى المعارك الانتخابية فى مختلف المراحل والمستويات .

إننا من منظور إسلامى - نحترم الكثير مما جاء فى دساتيرهم - لكننا ندين عدم طهارتهم أو بعضهم . هذا عن «الحكم والحكام» أما عن الأفراد، أو بعض الأفراد، (هذا البعض الذى قد يقل أو يكثر) ، والذى قد يمارس، أو يقر الممارسة المنحرفة) فالأمثلة كثيرة، أكتفى منها بذكر هؤلاء الذين يمارسون، أو يتصايحون، بحق الفتاة فى ممارسة العلاقة الجنسية مع الجنس الآخر، وحق المرأة عامة فى ذلك دون زواج شرعى ! وهذا ونحوه قد يأتى على «حضارتهم» من القواعد !

إن هناك الكثير مما يمكن، بل يجب أن ننقله عنهم . ولكن الحذر الحذر من أن نقترب من مثالبهم !

وأعود إلى الدولة الإسلامية وموقفها من المسألتين السابقتى الذكر (حسن استعمال الدولة لصلاحياتها وحسن استعمال الأفراد لحقوقهم وواجباتهم) .

لصاحب هذا البحث كتاب بعنوان «الإسلام والدولة» (١٩٨٢)؛ وفيه تعريف للدولة فى الفقه الحديث . وهذا التعريف مأخوذ من أركان الدولة - وهى بالإجمال : أرض وشعب وسلطة عامة عليا آمرة . وفى «المعجم الوسيط» لمجمع اللغة العربية أن «الدَّولة» - اصطلاحاً - «جمع من الناس مستقرون فى إقليم معين الحدود، مستقلون وفق نظام خاص» .

أقول : إن هذا التعريف الذى وضعه المجمع للدولة (اصطلاحاً) يعنى أن هذا اللفظ لم يستعمل فى هذا المعنى إلا فى تاريخ حديث . وأضيف هنا ما جاء فى «دائرة معارف البستانى»، وفيها : «يُراد بالدولة سلسلة الملوك المتتابعة فى مملكة ما من عائلة واحدة»، «وهى

المعروفة بـ Dynastie» . وهى كلمة يونانية معناها «سلطان» . ومن أمثلة الدول الإسلامية بهذا المعنى الدولة الأموية والدولة العباسية[1] ..» .

(٢)

هذا ولأبى الحسن الماوردى كتاب أسماه «الأحكام السلطانية والولايات الدينية» (جمع بين المسائل الشرعية والسياسية) . ومما جاء فى مقدمة الكتاب «إن الله – جلت قدرته – ندب للأمة زعيماً خلف به النبوة .. وفوض إليه السياسة ليصدر التدبير عن دين مشروع، وتجتمع الكلمة على رأى متبوع، فكانت الإمامة أصلاً استقرت عليه قواعد الملة وانتظمت به مصالح الأمة حتى استتبت بها الأمور العامة وصدرت عنها الولايات الخاصة، فلزم تقديم حكمها على كل حكم سلطانى، ووجب ذكر ما اختص بنظرها .. لترتيب أحكام الولايات على نسق متناسب الأقسام . وهو ما تضمنه هذا الكتاب من الأحكام السلطانية والولايات الدينية فى عشرين باباً .. إلخ .. (توفى الماوردى عام ٤٥٠ هـ) ولابن تيمية (٦٦١ – ٧٢٨ هـ) كتاب فى الحسبة عنوانه «الحسبة فى الإسلام – أو وظيفة الحكومة الإسلامية» (الناشر : المكتبة العلمية – بالمدينة المنورة) . أما كتاب أستاذى المرحوم الشيخ عبد الوهاب خلاف فى «السياسة الشرعية» فعنوانه – كما اختاره له مؤلفه فهو «السياسة الشرعية – أو نظام الدولة الإسلامية – فى الشئون الدستورية والخارجية والمالية» . وتاريخ تأليف الكتاب – كما جاء فى المقدمة – ص ٢، هو ١٣٤٢هـ ديسمبر ١٩٢٣ هـ)، وللمودودى رحمه الله – كتاب (أعده وترجمه – أحمد إدريس – مطابع المختار الإسلامى) وعنوانه «الحكومة الإسلامية» (طبعته الثانية مؤرخة – يناير ١٩٨٠) . وللمرحوم عمر التلمسانى كتاب بعنوان «الحكومة الدينية» (دار الاعتصام) . ولأستاذى الشيخ على الخفيف رحمه الله مقال منشور بالرسالة (عدد ٢٤٦ فى ٢١/٣/١٩٣٨) . بعنوان «الحكومة الإسلامية الأولى)، .. إلى آخره .

(٣)

وانتقل واسأل مع الدكتور كامل ليله – رحمه الله – هذا السؤال : ما المقصود بكلمة حكومة "Government" فى الفكر السياسى الحديث؟ المرجع نفسه ص ٥٣٠ وما بعدها) . والجواب والكلام له بتصرف» أن الكلمة تستخدم للتعبير عن معان مختلفة، فقد يقصد بها الوزارة فقط "Le Ministère" فيقال : إن رئيس حزب الأغلبية البرلمانية يجب أن يتولى رئاسة الوزارة . وقد تستخدم الكلمة «للتعبير عن السلطة التنفيذية : أى رئيس الدولة والوزراء ومساعديهم» والسلطة التنفيذية هى الأداة السياسية العليا للدولة . «وتطلق كلمة الحكومة – أحياناً – على مجموع الهيئات الحاكمة والمسيِّرة للدولة، وهى بهذا المعنى تشمل جميع السلطات من تنفيذية وتشريعية وقضائية : "L' ensemble des organes directeurs de l' Etat".

---

(١) وانظر – على سبيل المثال – فى تعريف الدولة وأركانها... (النظم السياسية – للمرحوم الدكتور محمد كامل ليلة – ١٩٦٣ – ص٢٥ وما بعدها .

وقد يراد بكلمة الحكومة طريقة استخدام السلطة وممارسة الحكم "L'exercice par le souverain de l' autorite' publique".

وبدون الدخول فى التفاصيل أعتقد أن استخدام كلمة «الحكومة» فيما نقلت عن الفقهاء القدامى والمحدثين (فى الفقه الإسلامى) تعنى المعنى الواسع لنفس الكلمة فى الفكر السياسى الحديث مما نقلت عن المرحوم الدكتور ليله، أى الهياكل والممارسة، أى الهيئات (Orgnes) والوظائف .

وأعود إلى كتاب الماوردى، وأنبه إلى ما جاء فى عنوانه من المزاوجة بين «الأحكام السلطانية والولايات الدينية» وإلى أنه - كما جاء فى العنوان - «جمع بين المسائل الشرعية والسياسية» . وفى مقدمة الكتاب إشارة إلى «الإمامة أو الخلافة» وإلى أنها هى الأصل، وعنها صدرت «الولايات» وحكم الإمامة (أو الخلافة) مقدم على كل حكم سلطانى .

«والولاية» (كما جاء فى المعجم الوسيط) هى : الخطة والإمارة . و«الولاية» (السلطان)، (والولاية) البلاد التى يتسلط عليها الوالى . و «الولى» كل من ولى أمرًا أو قام به . وفى القرآن الكريم :

« إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل، إن الله نعما يعظكم به، إنه كان سميعا بصيرا . يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم، فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك خير وأحسن تأويلا» (٥٨ - ٥٩ النساء) .

وفى «أوضح التفاسير - لابن الخطيب» عن هاتين الآيتين، قال عن الآية ٥٨ إنها فى ولاة الأمور، وتأدية الأمانة إلى أهلها أن تضع ثقتك فى محلها، فلا يحكمك إلا من هو أهل للحكم، ولا يليك إلا من هو أهل للولاية، فلا تلعب بك الأهواء فتجعل ثقتك فى غير موضعها وتخون الأمانة التى وضعها الله فى عنقك . والأمانات كل ما أُتمنت عليه من مال أو عهد .. وقال عن الآية الثانية - ٥٩ - «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم»

أى أطيعوا أوامر الله ونواهيه الواردة فى القرآن وأطيعو ما جاء عن الرسول، وأطيعوا أولى الأمر الذين هم منكم حساً ومعنى ولحماً ودماً و«أولى الأمر» هم الولاة ما داموا قائمين بأمر الله تعالى، فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . فإذا تنازعتم واختلفتم فيما بينكم، أو فيما بينكم وبين أولى الأمر فارجعوا إلى كتاب الله وسنة رسوله وهديه، فذلك خير من التعصب الأعمى والعنف، وأحسن مآلا وعاقبة . أُضيف : إن صوت الناخب أمانة وعليه أن يؤدى هذه الأمانة على الوجه الذى يرضى الله، أى للصالح العام، وليس لقرابة أو لأى اعتبار ذاتى . وعند الاختلاف حول أمر ما يجب الرجوع إلى المحاكم بمختلف أنواعها ودرجاتها . «القانون الإسلامى» دائماً هو السيد . ويكفى فى ذلك أن يكون القانون الذى تطبقه المحكمة غير مخالف للكتاب والسنة . ثم إن الرجوع إلى تراثنا الفقهى (وهو غنى وثرى) واجب الاعتبار «كعنصر مساعد» (أى للاستئناس به) .

واستمر مع «الماوردى» الذى وصف «الولايات بأنها «دينية» وأقول إنه جاء فى السطور الأولى من المقدمة : إنه «لما كانت الأحكام السلطانية بولاة الأمور أحق وكان امتزاجها بجميع الأحكام يقطعهم عن تصفحها لاشتغالهم بالسياسة والتدبير، أفردت لذلك هذا الكتاب متمثلاً فيه أمر من لزمت طاعته ليعلم الفقهاء فيما له منها فيستوفيه، وما عليه منها فيوفيه، توخياً للعدل فى تنفيذه وقضائه، وتحرياً للنصفة فى أخذه وعطائه ...يقول الشاعر العربى :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم .. ولا سراة إذا جُهَّالهم سادوا

فالرئاسة فى أى جماعة واجبة عقلاً، وإلا كانت الفوضى . وفى القرآن الكريم : «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم» (٥٩ - النساء)

وفى سنن أبى داوود عن أبى سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «إذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم» وفى سننه أيضاً عن أبى هريرة مثله . وفى مسند الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمروا أحدهم» . فإذا كان هذا واجباً فى أقل الجماعات، وأقصر الاجتماعات، كان فى الجماعات الكبيرة (كالأمم والشعوب) أوجب (وانظر الحسبة لابن تيمية نفسه ص٧) . وهذا كله واضح فى وجوب قيام «الدولة» عقلاً وشرعاً . أما «الدستور الإسلامى» أو «القانون الإسلامى» أو «الشريعة الإسلامية» فمصدرها الأول القرآن الكريم، والمصدر الثانى هو السنة التى جاءت تأكيداً وتفصيلاً لما جاء فيه . ونحن - فى أمور دنيانا تعتورنا التغيرات على امتداد الزمان، واختلاف المكان . ومنذ البداية وفى عهد أبى بكر رضى الله عنه (أى بعد قبض الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى) واجهت المسلمين مسائل ومشاكل وخصومات قضوا فيها بالرأى إذا لم يجدوا فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله نصاً[1] . وفيه أن أبا بكر كان «إذا أعياه العثور على النص جمع رءوس الناس وخيارهم واستشارهم وقضى بما أجمعوا عليه»

إن الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان ولذلك فإنها لم تأت - فى نصوصها، وفى كثير من الأمور - إلا بمبادىء عامة وكليات . ونحن - دائماً - فى حاجة إلى الاجتهاد للوصول إلى «الحكم المطلوب» . وكثيراً ما يستند هذا الاجتهاد إلى الروح العام للتشريع . والمصلحة العامة - دائماً - محل الاعتبار[2] .

(٤)

أعود إلى «الدولة» وأقول إن القدامى، وحتى تاريخ قريب، لم يقم فى أفهامهم، ولم تجر ألسنتهم ولا أقلامهم باسم «الدولة» بالتعريف المعاصر الذى أشرت إليه وإلى عناصره وأركانه

---

(١) الإسلام والقضاء للمؤلف - ١٩٩٢ ص ٦٠

(٢) انظر : ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١ هـ) - الطرق الحكمية - فى السياسة الشرعية تحقيق محمد حامد الفقى - طبعة ١٣٧٢ هـ ١٩٥٣م - مطبعه السنة المحمدية ص١٤ وفيها : إن «الله سبحانه وتعالى أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط (العدل) - فإن ظهرت أمارات العدل، وأسفر وجهه بأى طريق كان فثَمّ شرع الله».

آنفاً . ولكن الدولة ككائن تاريخي وكواقع وبذات العناصر والأركان - قد كان وقام منذ عهد الرسول عليه الصلاة والسلام . ومن هنا ساغ لنا أن نقول : إن الإسلام «دين ودولة» وأن «الدولة» قد قامت - أول ما قامت في يثرب . وقد كانت «بيعة العقبة الكبرى» النواة الأولى لهذه الدولة (الإسلام والدولة - للمؤلف نفسه - ص١٠ وما بعدها) .

لقد تكلم القدامى عن «الخلافة أو الإمامة» وعن نشأتها ووظائفها، وحقوقها وواجباتها إلى آخره، ويعنون بها الدولة وذلك حتى تاريخ قريب كما قلت . (وانظر : الإسلام والدولة - السابق الذكر وكله يدور حول هذا الموضوع) .

و«الإمامة» - عند الشيعة الاثنى عشرية - أصل من أصول الدين، لا يتم إلا بالاعتقاد بها، وهي كالنبوة لطف من الله تعالى .. إلى آخره (الإسلام والدولة نفسه ص٢٠٨ وما بعدها) - وهذا الاعتقاد ينطبق فقط - عندهم - على «الاثنى عشر إماماً» بدءاً بالإمام علي، وانتهاءً بالإمام محمد المنتظر - المرجع السابق ص٥٧ هامش٣ و ص٢١١) .

أما عند «أهل السنة» (وهم جمهور المسلمين) فهي (أي الإمامة أو الخلافة أو رئاسة الدولة الإسلامية) من الفروع، وقد اقتضاها العقل والشرع «لحراسة الدين وسياسة الدنيا» (الماوردي - نفسه - الباب الأول) .

وقد أطلق البعض (ومنهم الأستاذ الكبير المرحوم عمر التلمساني - المرشد العام السابق للإخوان المسلمين) على الجهاز الحاكم أو الأجهزة الحاكمة في الدولة الإسلامية «الحكومة الدينية» (وله كتاب بهذا العنوان سبق ذكره .) ولا بأس بهذه التسمية إذا كان المراد بها أنها تطبق الشريعة الإسلامية، وتلتزم بمكارم الأخلاق، وترفض ما ساد في النظم والديمقراطيات الغربية من انحرافات مثل «سلطان المال، والدعاية الخادعة الكاذبة كوسائل للوصول إلى كراسي الحكم وممارسة السلطة والصلاحيات . وإني أوثر العدول عن هذه التسمية وعلى تجنب أية تسمية قد يستغلها رئيس الدولة، أو المنافقون من حوله على إسباغ صفة القداسة عليه . ولذلك ومن هنا يجب العدول عن تسميته «خليفة» أو «إماما» و ما أشبه . إنه رئيس عادي «لدولة، أو لجمهورية إسلامية» . إن جهاز الحكم في الدولة الإسلامية، جهاز «مدني» يطبق الشريعة الإسلامية، والقوانين المتجددة المستمدة منها والتي لا تخالفها . إن الأخلاق الإسلامية هي عماد هذه «الحكومة الإسلامية» . وإن «الشورى» (أي حكم الشعب) هي ركيزتها (وانظر للمؤلف «الإسلام وحقوق الإنسان» - دراسة مقارنة) (الشورى ص ٥٤٢ - ٥٨٢ و «الإسلام ومكارم الأخلاق» ص ٥٨٢ - ٦٠٤ طبعة ثانية) .

وأعود وأؤكد أن «رئيس الدولة أو الجمهورية الإسلامية» يعتبر من حيث الأصل والأساس» مساوياً لأي مواطن آخر . وإذا اختير النظام البرلماني في أي دولة إسلامية، فإن الرئيس - في ظل هذا النظام يكون مجرد رمز، وتنتقل الصلاحيات والمسئولية كذلك إلى رئيس الوزراء (الوزير الأول) - كما هي الحال في بريطانيا والهند (ومعظم الديمقراطيات الغربية) . وإذا اختير النظام الرئاسي (كما هي الحال في الولايات المتحدة الأمريكية) - فإنه تكون له صلاحيات (سلطات)

فعلية، وفى كثير من الحالات يشاركه فيها (أى فى هذه السلطات التنفيذية) (الكونجرس) . وهو (أى الرئيس) دائماً ملتزم بالقانون وبالعرف، والأخلاق العامة ومنذ سنوات قليلة، اضطر الرأى العام الأمريكى «الرئيس الأسبق نيكسون» إلى الاستقالة فيما عرف «بفضيحة ووتر جيت» (ووقائعها التنصت على الحزب المعارض أثناء الانتخابات ، ثم الكذب) .

ومدة الرئاسة (هناك) أربع سنوات يجوز بعدها للرئيس أن يرشح نفسه فترة ثانية . (و هذه قاعدة عرفية شبه مستقرة) (وتحديد مدة الرئاسة بفترة معقولة قاعدة يجب الأخذ بها فى الدولة الإسلامية) . وسواء كان النظام فى الدولة الإسلامية برلمانياً أو رئاسياً، فإن هذا لا يغير من الأمر شيئاً من حيث المساواة بين الرئيس[1] . وسائر المواطنين . فالمنصب فى النظام الإسلامى «تكليف لا تشريف» . والأمة (أو مجموع المكلفين) . (هيئة الناخبين) مطالبون باسم الأمة بإقامة الهياكل والمؤسسات الدستورية التى تقوم نيابة عنها بسائر وظائف الدولة (الأمن الخارجى والداخلى والقضاء وسائر الأعمال الإنتاجية والخدمية) . والكل - فى الإسلام وكما جاء فى الحديث الشريف - راع ومسئول عن رعيته، أى أن كل مواطن حاكم ومحكوم فى نفس الوقت، وفى كل موقع . وتفاوت الولايات أو الصلاحيات أو السلطات لا تعنى التفاضل باختلاف المواقع، فالأكرم فى الإسلام هو الأتقى . هو الأكثر إخلاصاً والأحسن أداءً أياً كان موقعه .

ولتكن لنا فى الرسول الكريم وصحبه أسوة وقدوة، لقد كانوا قمة فى التقوى، وكانوا قمة فى الإخلاص وصدق الأداء . هذا هو أبو بكر الصديق، الرجل الأول فى مدرسة الرسول، ها هو يقول : والله لو كانت إحدى قدمىّ فى الجنة، والأخرى ما زالت خارجها ما أمنت مكر الله![2] . (أو كما قال)، وها هو فى أول خطبة له بعد اختياره خليفة يقول : لقد وليتمونى عليكم، ولست بخيركم، إن أحسنت فأعينونى، وإن أخطأت فقومونى . إلى آخره ..

وها هو عمر الرجل الثانى فى مدرسة الرسول يقول : والله لو أن دابة تعثرت فى أقصى الدولة لسُئل عنها عمر، لِم لَم يمهد لها طريقها» (أو كما قال) إلى آخره .. ويكفى أن نتذكر ما لاقاه الرسول وصحبه معه وبعده فى نشر الدعوة، يكفى أن نتذكر الذين استشهدوا من الصحابة فى حروب الردّة .. إلى آخره. لقد كان التسابق إلى الجنة والنعيم فى الآخرة هو أملهم. وما يشغل بالهم[3] !

إن وظيفة الحكومة الإسلامية هى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وكل مسلم فى كل موقع مطالب بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وهذا الآمر الناهى يجب أن يكون - فى التحلى

---

(١) غير أن عبء الرئيس أثقل : ومسئوليته - دنيا وأخرى - أكبر.

(٢) ويروى عن عمر رضى الله عنه قوله (بنفس المعنى) : والله لو قيل : «إن الناس جميعاً سيدخلون الجنة إلا واحداً لظننت أنى هذا الواحد» (أو كما قال).

(٣) ولم يكن هذا إلا امتداداً لما كان فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ويكفى أن نتذكر «غزوة بدر الكبرى» فى العام الثانى للهجرة - وما كان من اشتياق المسلمين يومها للجنة !.

بالفضائل ومكارم الأخلاق – قدوة . ومن هنا ومع الإيمان والمسارعة فى الخيرات نكون خير أمة.

ولست بحاجة إلى القول بأنه حين تكون هذه صفاتنا ومؤهلاتنا، وخاصة فى قادتنا (من ولاة ودعاة) فلن يكون هناك مجال أو احتمال لسوء استعمال السلطة أو أن هذه الإساءة ستكون فى أضيق نطاق وأخفه .

هذا عن «الحكام» أما عن الأفراد وحسن استعمال الحرية، فهو موضوع الفصل الرابع والأخير كما سبق القول فى التقسيم .

الفصل الثانى

«وقولوا للناس حسنا[1]»

(٥)

إنى إذ أدعو الحكام إلى الصبر وسعة الصدر، وتقبل النصح والنقد . وإنى إذ أدعوهم - قبل ذلك وبعده ودائماً - إلى حسن استعمال الصلاحيات و«السلطات» - أدعو - وفى نفس الوقت، وبنفس القدر - الناصحين والناقدين - وبالمقابل - إلى أن يكون قولهم للناس (وخاصة الحكام) - قولاً حسنا . وليس هذا الذى أدعو إليه بجديد، إنما هو ترديد وتأكيد للدعوة القائمة والدائمة - إلى وجوب قيام توازن (وتعادل وتصالح وتهادن وتعاون) بين سلطات الدولة وهيبتها من جهة وبين حقوق الأفراد[2] من جهة أخرى . إنه توازن لابد منه لتحقيق الحرية والشورى والاستقرار والسلام الإجتماعى . فإذا فقد هذا التوازن - أو اختل - بأن أساءت الدولة استعمال سلطاتها كان الاستبداد، وإذا جاوز الأفراد حدودهم، وانحرفوا وهم يمارسون حقوقهم - (بل واجباتهم) - كانت الفوضى . وليس وراء أى منهما (الفوضى أو الاستبداد) إلا الفساد .

و«الحرية» نعمة كبرى . وهى - بالمفهوم الإسلامى[3] - نعمة لا تعدلها - فيما أرى نعمة أخرى . والناس بدونها يصبحون كالأنعام[4] بل أضل .

والنعم - كل النعم من الله « وما بكم من نعمة فمن الله»[5] «وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها»[6] والنعمة تستوجب الشكر «لئن شكرتم لأزيدنكم»[7] ولا شىء يزيل النعم كبطرها والكفر بها «ولئن كفرتم إن عذابى لشديد»[8] ومن البطر والكفر بالحرية سوء استعمالها . وحين تأتى النقمة (بسلب الحرية) لا تصيب الذين ظلموا وحدهم . «واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة»[9] .

---

(١) انظر - أيضاً - الآية ٥٣ - الإسراء «وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن ..».

(٢) وهذا الذى أوجهه إلى الأفراد عامة، أو جهه إلى أعضاء المجلس التشريعى - بصفه خاصة إن واجبهم الأول هو مراقبة الحكومة، وتقديم الأسئلة والاستجوابات إليها . وقد يترتب على ذلك إعطاءها الثقة أو قبضها عنها (أى إسقاطها).

(٣) وقد عرفت الحرية - بالمفهوم الإسلامى - بأنها «إرادة الإنسان وقدرته على ألا يكون عبداً لغير الله» (الإسلام وحقوق الإنسان - دراسة مقارنة) للمؤلف - بند ١٥٥ طبعة ثانية.

(٤) انظر ١٧٩ الأعراف و ٤٤ الفرقان.

(٥) ٥٣ - النحل. (٦) ٣٤ ابراهيم ، ١٨ النحل. (٧) ٧ - إبراهيم. (٨) ٧ - إبراهيم (٩) ٢٥ - الإنفال.

وإذا كان سوء فهم الحرية، وسوء استعمالها، مما لا يكاد يسلم منه مجتمع من المجتمعات التى تتمتع بالحرية وتمارسها فإنه (أى سوء الاستعمال والانحراف فى الممارسة) - أشد حدة فى البلاد المتخلفة . ومهما يكن من شىء، فإن تمتع الشعوب بالحرية والديمقراطية - مع عيوب لهما - خير من الوصاية عليها[1]

وأعود وأقول : إنه إذا كانت وسائل الإعلام قد تعددت وتنوعت فما زالت الصحافة ذات مكانة مرموقة بينها، وما زال انتشارها واسعاً، وتأثيرها بالغا، حتى لقد دعاها البعض «صاحبة الجلالة» . وفى مصر أضيف إلى الدستور عام ١٩٨٠ باب سابع . والفصل الثانى منه بعنوان «سلطة الصحافة» (المواد من ٢٠٦ - ٢١١) - ومما جاء فى المادة ٢١٠ - أنه «لاسلطان على الصحفيين فى عملهم لغير القانون» . وإنى إذ أنوه بحرية الرأى عامة والصحافة خاصة فى مصر الآن، فلا يفوتنى أن أشير إلى مطلب عاجل للشعب وهو وجوب تعديل الدستور بما يحقق الديمقراطية السياسية بكل أركانها ومقوماتها . وفى ظل ما أشرت إليه من حرية الرأى يمكن للجميع نشر ما يعن لهم من آراء أو شكاوى، تتسم بالموضوعية والنزاهة . وفى ذلك إسهام مطلوب، واهتمام مرغوب بالشئون العامة . وكل هذا وفى هذه الحدود واجب دينى ووطنى، إنه النصح الذى أشار إليه الحديث الشريف «الدين النصيحة»

وعلى ذوى الكفاءة والنزاهة أن يتقدموا الصفوف فحصيلة الآراء المنشورة فى المسألة المطروحة [2] عظيمة الفائدة . إن لكل فرد تجاربه ولكل طبقة أو فئة أو طائفة آلامها وآمالها . وهذا كله يجب أن يكون تحت أنظار أصحاب القرار (أى أهل الحل والعقد) . ويقى الله أمتنا شرور هؤلاء من أصحاب الهوى والطمع والسياسات المنحازة .

(٦)

وأعرض فيما يلى بعض النصوص التى تنبهنا إلى بعض الأمراض الاجتماعية التى تصيب بعض الناس .

---

(١) منذ شهور بدأت مفاوضات فى مدريد بين العرب واسرائيل لإحلال السلام بينهما وكان شامير (رئيس الوزراء هو رئيس الوفد الإسرائيلى). وفى خطابه هاجم العرب وكان مما قاله فيهم (لتحييد أوروبا، بل ولإثارتها ضدهم، إنهم أعداء الديمقراطية. وإن حكامهم يحكمون حكماً استبدادياً . ونفس الاتهام ردده رئيس دولة اسرائيل فى البرلمان الأوربى. وفى هذا المناخ، وبغير تقدير للعواقب، وأد نفر من العسكريين والمدنيين الجزائريين تجربة ديمقراطية للشعب الجزائرى الذى اختار فى انتخابات حرة قيام الدولة الإسلامية بانتخاب مرشحى جبهة الإنقاذ الإسلامية. وكان الله فى عون الشعب الجزائرى، وفى عون الأحرار فى كل مكان.

(٢) من أقوال عمر بن الخطاب رضى الله عنه «عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد» (انظر للمؤلف الإسلام وحقوق الإنسان - نفسه بند ٢٠٩) والمراد بالجماعة أهل الحل والعقد)

عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «من تقوّل علّى ما لم أقل، فليتبوأ مقعده من النار» . لكن قوماً، أو أقواماً قد أعماهم حب الدنيا فلم يعودوا يرون سواها، واختلقوا ما اختلقوا ونسبوه إلى رسول الله . شاهت وجوههم وإلى النار مصيرهم . وهؤلاء آخرون يقول فيهم المولى عزّ وجل : « **ومنهم من يلمزك فى الصدقات، فإن أعطوا منها ر ضوا، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون**» (٥٨ – التوبة) أى ومن الكفارين والمنافقين من يعيبك فى توزيع الزكاة فإن أعطوا منها كانوا من الراضين وإن لم يعطوا كانوا ساخطين . لقد كان رضاهم وسخطهم للدنيا وليس لله ولا للمسلمين . ومن الناس من يستبد بهم الغلو، والغلو حمق . «والحمق داء ما له دواء» . وفيهم يقول تعالى : «**يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق**» (١٧١ – النساء) ويقول : « **قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل، وأضلوا كثيرا، و ضلوا عن سواء السبيل**» (٧٧ – المائدة) .

ومن الحديث الشريف : «إياكم والغلو فى الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو فى الدين» (رواه أحمد فى مسنده عن ابن عباس .

وفى القرآن الكريم والسنة الشريفة الكثير من النصوص فى هؤلاء الذين يخونون أمانة الكلمة أكتفى ببعضها :

(أ) من هؤلاء قوالو الزور : يقول تعالى :

« **فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور . .** » (١) ويقول : « **قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والإثم والبغى بغير الحق، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون**»(٢) . ومن التقول على الله قول الزور وشهادة الزور . وفى الآيتين الكريمتين جاء النهى عن قول الزور مقروناً بالنهى عن الشرك به .

ومن السنة ما أخرجه الإمام أحمد فى مسنده عن خريم بن فاتك الأسدى، قال : صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح، فلما انصرف قام قائماً فقال : عدلت شهادة الزور الشرك بالله عز وجل، ثم تلا هذه الآية : « **فاجتنبوا الرجس . .** » . وفى الصحيحين عن أبى بكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر»؟ قلنا بلى يا رسول الله . قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين» وكان متكئاً فجلس فقال : «ألا وقول الزور وشهادة الزور فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت .

(ب) فيمن يقولون أو يكتبون عن جهل، أو بغير تحقق وتثبت أو بالظن :

فى هؤلاء يقول الله تعالى : « **ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله، له فى الدنيا خزى، ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق**»(٣) . والآية

---

(١) ٣٠ و ٣١ – الحج (٢) ٣٣ – الأعراف.

(٣) ٨ ، ٩ الحج

تشير إلى هؤلاء الذين يجادلون بلا عقل صحيح، ولا نقل صريح، وإنما بالهوى والاستكبار عن الحق والعدول عن العدل .

وفي ذات المعنى وما يتصل به يقول تعالى : «ولا تقف ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا»(١) . ويقول : «اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم»(٢) . ويقول : «إن الظن لا يغني من الحق شيئا»(٣) . ويقول : «يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين»(٤) . ومن الحديث : «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»(٥)

(جـ) فيمن يراءون وينافقون : -

فيهم يقول تعالى : «إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا . إلا الذين تابوا .. إلى آخر الآية» (٦) . ومن الحديث الشريف، قوله صلى الله عليه وسلم : «إن أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلون»(٧) .

وقوله : «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر : الرياء .. إلى آخر الحديث» (٨)، وقوله «إن أخوف ما أخاف عليكم بعدي كل منافق عليم اللسان» (٩) .

(د) حديث الإفك (١٠) : -

أنقل هنا هذه الآيات من سورة النور

يقول تعالى : «إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم .. لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم، والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم» (١٠ من السورة) . «إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم . ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا، سبحانك هذا بهتان عظيم . يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين» (١٥، ١٦، ١٧ من نفس السورة) . الإفك هو أسوأ الكذب . وقد كذبوا على أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ورموها بما هى منه براء . إذ تتلقفونه بأسماعكم وتذيعون بألسنتكم فور سماعه . وكان الأولى بكم أن تقولوا «هذا بهتان» ولا يليق بنا الخوض فيه .

«إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة، والله يعلم وأنتم لا تعلمون» (الآية ١٩، وانظر الآيات كاملة، وانظر تفاصيل كثيرة فى كتب التفسير، ومنها «أوضح التفاسير» .

---

(١) ٣٦ الإسراء. (٢) ١٢ الحجرات (٣) ٣٦ يونس ، ٢٨ النجم

(٤) ٦ الحجرات (٥) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة.

(٦) ١٤٥، ١٤٦ النساء (٧) لأحمد في مسنده، وللطبراني في الكبير عن أبي الدرداء.

(٨) لأحمد في مسنده عن محمود بن لبيد (٩) للطبراني في الكبير - عن عمران بن حصين.

(١٠) مما يؤسف له أنه توجد فى عصرنا، وفى الشرق والغرب، مجلات متخصصة فى «الفضائح» - ولها رواج كبير.

يقول الله تعالى فى (نفس السورة – الآية ٢٢) : « **ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله، وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم، والله غفور رحيم»** .

مما قيل فى أسباب نزول هذه الآية، أن كثيراً من الصحابة – ومنهم «أبو بكر» رضى الله عنه وعنهم – كانوا قد أقسموا – بعد حديث الإفك – ألا يعطوا بعض من خاض فى هذا الحديث من الفقراء – الذين كانوا يعطونهم من قبل . والآية الكريمة تستحثهم على العطاء رغم ما كان منهم . ذلك أن سبب العطاء الحاجة، ولو كان الفقير أو المسكين عاصياً أو آثماً أقول : الله أكبر . . الله أكبر . . هذا هوالإسلام . لقد كان ما ارتكبه أصحاب الإفك شيئاً بالغ الفحش والقبح . ولنتذكر كيف عانى رسول الله، وكيف عانت عائشة وأبوها ونووها بسبب هذا الحديث ! لكن القرآن يأمر بالعفو والصفح حتى عن هذه الكبائر ! مرة أخرى، ومرات: الله أكبر.. الله أكبر هذا هو الإسلام! هل من مستمع، هل من متعظ؟! .

ورضى الله عن ابن الخطاب، إذ قال : «ما عاقبت من عصى الله فيك من أن تطيع الله فيه» .

(هـ) دعاة الشر :

يقول تعالى : « **ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل، ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون . وكذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون . فا صبر إن وعد الله حق، ولا يستخفنك الذين لا يوقنون»** (٥٨ – ٦٠ الروم) . فى تفسير القرطبى : لا يستخفنك أى لا يستفزنك عن دينك «الذين لا يوقنون» . والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد أمته . يقال : استخف فلان فلاناً، أى استجهله حتى حمله على اتباعه فى الغى . وفى تفسير ابن كثير : «ولا يستخفنك» أى اثبت على ما بعثك الله به، فإنه الحق الذى لا مرية فيه .

أقول: فى الناس أخيار وفيهم أشرار . والشر والخير درجات . ويحدث كثيراً أن يزين الطالحون «سيرتهم السيئة» للصالحين . وعلى هؤلاء أن يثبتوا على ما هداهم الله ومنحهم من خير .

(و) من صفات المؤمنين :

فى صفاتهم يقول الله تعالى: « **وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما،** (٦٣ –الفرقان) . « **والذين لا يشهدون الزور، وإذا مروا باللغو مروا كراما»** (٧٢ – من نفس السورة) .

وفى مثل هذه المعانى الكريمة – يقول تعالى فى سورة فصلت (الآيات من ٣٣ - ٣٦) .« **ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا، وقال إننى من المسلمين . ولا تستوى الحسنة ولا السيئة،ادفع بالتى هى أحسن، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم . وما يلقاها إلا الذين صبروا، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم . وإما ينزغنك الشيطان نزغ فاستعذ بالله، إنه هو السميع العليم»**

أقول : إنه إذا كانت الحرية - كما عرّفتها - هى «إرادة الإنسان وقدرته على ألا يكون عبداً لغير الله» والعبودية لله هى فى اتباع سبيله دون سواه فإذا وسوس الشيطان للإنسان، وأغراه على ما يغضب الله، فلا ملجأ إلا بالاستعاذة منه بالله . وهذه الاستعاذة ليست كلاماً يجرى على اللسان، إنما هى يقين فى القلب واطمئنان فى النفس، وفعل ملتزم بحدود الله . ما أجمل الحلم، ما أجمل العفو والصفح! إن فى ذلك الخير كل الخير، فرب شرارة أذكت نارا، ورب كلمة أشعلت حرباً . .!.

(ز) عودة إلى قوله تعالى : «وقولوا للناس حسناً»

من المحقق أنه لو تمسك كل مسلم بأوامر دينه، وانتهى عما نهى عنه لكان اسعد الناس، ولعادت أمته « خير أمة أخرجت للناس » (١١٠ - آل عمران) إن المسلم مأمور بألا يقول إلا «حسنا» وألا يكتب إلا حسنا وألا ينوى إلا حسنا . إنه يعلم أنه : « مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد» (١٨ - ق) . ومن « ويعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » (٧، ٨ الزلزلة) . والله - جل وعزّ - « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور» (١٩ غافر) . والأعمال فى الإسلام بالنيات، ولكل إمرىء ما نوى (حديث شريف) . والمسلم (بحق) يؤمن بأن البعث حق، وبأن من فاته الجزاء فى الدنيا، فلن يفوته فى الآخرة . وهذه بعض النصوص الواردة فى «الحسن» (وما فى معنى الحسن) - فى القول وغيره . ولنبدأ بالآية ٨٣ من سورة البقرة ونصها : « وإذ أخذنا ميثاق بنى اسرائيل لا تعبدون إلا الله، وبالوالدين إحسانا، وذى القربى واليتامى والمساكين، وقولوا للناس حسنا، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون» . «والحُسن» هو الجمال(١) «والله جميل يحب الجمال» (كما جاء فى حديث شريف)، والحسن ضد القبح . والحُسن (كالجمال) من القيم الكلية العليا . ومعناه واسع وشامل لكل ما هو مبهج مفيد مرغوب فيه . وقد جاء الأمر بالحسن فى الآية الكريمة ضمن النص على أهم أركان الدين . وقوله تعالى: «وقولوا للناس حسنا» يتضمن كل ما يتعلق بموضوعنا . وهو حسن استعمال الحرية، وعدم إساءة هذا الاستعمال . وبعبارة أخرى : الالتزام بتقوى الله فهى الضمان والسياج .

وفى القرآن والسنة، مما يتصل بهذا الموضوع من النصوص ما يعز على الحصر وسأذكر فيما يلى بعضها، منبهاً إلى أنها عهود ومواثيق أخذها الله علينا . والرجاء ألا نتولى معرضين عنها : «ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا، ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا . قال كذلك أتتك أياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى . وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى» (١٢٤ إلى ١٢٧ طه) .

---

(١) ورد لفظ الجمال (اسماً) فى القرآن الكريم مرة واحد (٦ - النحل)، وجاء - وصفاً سبع مرات : ثلاثا منها وصفاً للصبر (الآيات ١٨ ، ٨٣ من يوسف والآية الخامسة من المعارج ومرتين وصفاً للسراح (الطلاق ٢٨)، (٤٩ من الأحزاب) ومرة وصفاً للصفح (٨٥ - الحجر) وأخرى وصفاً للهجر مع الأمر بالصبر (١٠ - المزمل) هذا وللمؤلف - كلمة بعنوان «الجمال فى القرآن الكريم» ستنشر بإذن الله فى كتابه (تحت الإعداد) «مع الله - فى كتابه وسنة نبيه».

(ح) فى الإخلاص وإحضار النية :

يقــول تعالــى : «وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ..» إلى آخر الآية (٥ - البينة) . ويقول : «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» (٥٦ الذاريات) . ومن الحديث الشريف عن عمر رضى الله عنه . قال : «سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل أمرىء ما نوى . فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» (متفق عليه) .

(ط) فى الحكمة :

يقول تعالى: «يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولى الألباب» (٢٦٩ - البقرة) - والحكمة قمة العقل . والحكيم يحرص على الادخار والاستكثار والاستثمار عند الله، وقوله وفكره وعمله وخواطره لا تكون إلا صالحة . والحكيم حليم، يكظم الغيظ ويعفو عن الناس . ويدفع السيئة بالتى هى أحسن . وفى الحكمة يقول صلى الله عليه وسلم: «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها» (الترمذى وابن ماجة عن أبى هريرة) .

(ى) الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة:

يقول تعالى: «ألم تر كيف ضرب الله مثلا ، كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء، تؤتى أكلها كل حين . بإذن ربها، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة ، اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار . يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، ويضل الله الظالمين، ويفعل الله ما يشاء . ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار . جهنم يصلونها وبئس القرار . وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله، قل: تمتعوا فإن مصيركم إلى النار» (الآيات ٢٤ - ٣٠ إبراهيم)

أقول : إن الآيات واضحة لا تحتاج إلى تعليق . وأضيف : إن الآيات الأخيرة تعنى فيما تعنى هؤلاء من الحكام وذوى النفوذ وحملة الأقلام الذين استخفوا أقوامهم وفرضوا انفسهم آلهة عليهم . لقد ضلوا وأضلوا وأحلوا أتباعهم دار البوار والهلاك . وليس لهؤلاء وهؤلاء - (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان)[1] - ليس لهم فى الآخرة إلا النار .

(ك) اللين فى القول :

يقول تعالى :مخاطبا موسى وهارون عليهما السلام : «اذهبا إلى فرعون إنه طغى، فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى» (٤٣-٤٤ طه) ويقول مخاطبا رسولنا الكريم : «فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر، فإذا عزمت فتوكل على الله» (١٥٩ - آل عمران) .

---

(١) ١٠٦ النحل.

ويقـول : «ادع إلـى سبيل ربـك بالحكمـة والموعظـة الحسنـة وجادلهم بالتى هى أحسن. .» (١٢٥ –النحل) ويقول : «ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن..» (٤٦ العنكبوت) ويقول فى أهـل الجنـة : «وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد» (٢٤ – الحج) .

أقول : نشأ نبينا عليه الصلاة والسلام، وعاش، ودعا إلى الله، وحمل أعباء الرسالة الثقال – وهو دائماً بعين الله . وبرحمة من الله وفضل، كان لين الجانب، يعفو ويصفح، ويدفع السيئة بالحسنة، ويشاورهم فى الأمر . وبالقرآن الكريم، وبالخلق العظيم، وبخفض الجناح للمؤمنين، وبالأسوة والقدوة، أقبل من هدى الله قلوبهم – عليه، وأحبوه أكثر من حبهم لأنفسهم . وفى أحد وحنين وغيرهما ، أحاطوه بأجسادهم، وفدوه بأرواحهم ولو كان فظاً غليظ القلب لانفضوا من حوله . ما أكثر ما نفرت «الكلمة السيئة» من الناس، وما أكثر ما قربت «الكلمة الطيبة» بينهم . ومن هنا أجيز الكذب فى حالات، منها الرغبة فى إزالة ما بين متخاصمين من بغضاء وشحناء .

(ل) آيات من سورة الحجرات :

أقول : إننا مطالبون «بالقول الجميل» بدارا وابتداء، ومطالبون به دائماً، ومع الجميع، حتى من جاوز وأساء . والقرآن الكريم والسنة الشريفة يؤكدان هذا المعنى ويفصلانه فى نصوص تربو على الحصر . وأكتفى هنا بالآيات التاليات من سورة الحجرات . إنها آيات يؤدب الله بها عباده المؤمنين ويهذبهم أينما كانوا من الزمان أو المكان . يقول تعالى : «يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله، واتقوا الله، إن الله سميع عليم . يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض، أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون . إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، لهم مغفرة وأجر عظيم . إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون . ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم، والله غفور رحيم . يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين» (الآيات من ١ – ٦ من السورة) . ويقول تعالى : (فى نفس السورة) (الآيات من ١٠ – إلى ١٣) «إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون . يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون . يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم، ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه، واتقوا الله، إن الله تواب رحيم . يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير»

١ – يقول القرطبى : فى مقدمة تفسيره لسورة الحجرات التى نقلت منها ما نقلت فيما تقدم – يقول إن السورة فى الأمر بمكارم الأخلاق ورعاية الآداب . .

٢ – يمكن أن نستنتج من قوله تعالى : «لا تقدموا بين يدى الله ورسوله» أنه من الآداب الإسلامية، ألا يقاطع السامع المتكلم، وألا يسبقه إلى ما يريد أن يقوله .

٣ – غض الصوت أولى بالمرء بصفة عامة؛ ومع كل من له فضل ويد علينا بصفة خاصة . أما الضعفاء من الناس فيجب خفض الجناح لهم، وأما ذوو الحاجة، فيجب ألا نتجهم فى وجوههم . إنه إن لم تسعفهم أموالنا، فيجب أن تسعفهم أخلاقنا .

٤ – النداء من وراء الحجرات، وما إلى ذلك وهو كثير، عادات جاهلية يجب على المسلم أن ينأى بنفسه عنها .

٥ – يجب أن نتحقق مما يأتينا من أنباء، وخاصة إذا كانت من فاسق وذلك قبل أن نرتب عليها أية تصرفات .

٦ – المؤمنون إخوة، ولا ينبغى أن تقوم عداوة بينهم . والإصلاح بين المؤمنين واجب . والتقصير فيه، مع القدرة عليه – إثم كبير(١)

٧ – السخرية من الآخرين، واللمز، والتنابز بالألقاب، كل هذا من الفسق وفى الحديث الشريف «رُب أشعث أغبر ذى طمرين لو أقسم على الله لأبره»(٢) .

٨ – بعض الظن إثم، وعلينا أن نتجنب كل ظن يوقعنا فى هذا الإثم .

٩ – طوبى لهؤلاء الذين شغلهم النظر فى عيوبهم، وإصلاح نفوسهم، عن تتبع عورات الآخرين(٣) .

١٠ – الغيبة من الكبائر إذا كانت فى المرء الذى يستر نفسه . وفى الخبر : من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له(٤) . وقال صلى الله عليه وسلم «اذكروا الفاجر بما فيه كى تحذره الناس» وروى عن الحسن أنه قال : «ثلاثة ليست لهم حرمة صاحب الهوى، والفاسق المعلن، والإمام الجائر»؛ و قال : «لىّ الواجد يحل عرضه وعقوبته(٥) » وقال : «لصاحب الحق مقال»(٦) . فكل هؤلاء المبينين فى الأحاديث السابقة ومنهم الحاكم الجائر، لا غيبة لهم . ويجب ذكرهم بما فيهم، والنصح لهم، فإن لم يرجعوا وجب نقدهم وتعريف الرأى العام بما فيهم كى يحذروهم، ويقبضوا ثقتهم عنهم .

١١ – يأمرنا المولى سبحانه وتعالى بأداء الأمانات إلى أهلها . والكلمة أمانة فيجب أداؤها على خير وجوهها . (انظر الآيات ٥٨ النساء و ٧٢ ، ٧٣ الأحزاب) .

---

(١) انظر تفسير ابن الخطيب للآية ١٠ من السورة.

(٢) مذكور فى المرجع السابق وفى الفتح الكبير : «رب ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره» (البزار عن ابن مسعود).

(٣) فى الحديث «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وأنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله ووسعته السنة فلم يعدل بها إلى البدعة» للديلمى فى مسند الفردوس عن أنس.

(٤) للبيهقى فى السنن عن أنس.

(٥) اللى هو المطل. والواجد القادر على أداء دينه (رواه أحمد فى مسنده عن الشريد بن سويد.

(٦) انظر فى كل ما تقدم، وفى الأحاديث المذكورة تفسير القرطبى للآية.

١٢ – إن الدنيا، وإن «السلطة» عند الكثيرين غاية، والغاية عندهم تبرر الوسيلة . أما المسلم فهو منصف، ومنصف دائماً، سواء كان فى صف المؤيدين أم المعارضين . إنه منصف لغيره حتى من نفسه، ومنصف لهذا الغير حتى لو كان من أعدى الأعداء، وحتى لو كان من غير ديننا (١٣٥ – النساء، ٨ المائدة ، ١٥ الشورى) (الإسلام وحقوق الإنسان للمؤلف – دراسة مقارنة بند ٢٩٥ – ٢٩٨) .

١٣ – تأدب عليه الصلاة والسلام بالقرآن، وبالقرآن أدب أصحابه، ولنا فيه وفيهم عليهم الصلاة والسلام أسوة وقدوة .

١٤ – يقولون : إن «الشعر ديوان العرب» أى سجلهم، أى أن مكانه منهم مكان الصحافة ووسائل الإعلام منا الآن . وكان الشعراء، أو كبارهم، أو معظم هؤلاء الكبار، يتبارون – فخراً وزهواً – فى طَرْق أبواب الشعر المختلفة، ومنها «باب الهجاء» . إنهم والدارسين لشعرهم، أو بعض هؤلاء الدارسين، قد توهموا أن الشاعر لن يكون فحلاً أو عبقرياً، إلا إذا ملك ناصية البيان، حتى فى باب الهجو والفاحش من القول . وفى الشعراء يقول تعالى : «والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وذكروا الله كثيرا، وانتصروا من بعد ما ظلموا، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون» (٢٢٤ إلى ٢٢٧ من سورة الشعراء) .

(م) الدين النصيحة :

إن ما يسمى – فى الفقه الدستورى الحديث «حرية الرأى، وحق النقد، وحق تقديم العرائض، وما إلى ذلك – يسمى – فى الإسلام «النصح» – وهو واجب وفرض وفى الحديث الشريف : «الدين النصيحة» . قلنا : لمن يا رسول الله، قال : لله، ولكتابه، ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» . (رواه مسلم عن أبى رقية تميم بن أوس الدارى رضى الله عنهما) . وعن جرير ابن عبد الله رضى الله عنه قال : «بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم» (متفق عليه) .

وفرق كبير بين الحق والواجب، فالأول رخصة لا شىء على المرء إذا لم يؤدها . أما الواجب، فعلى من قصر فى أدائه وزر . إنه فى مجال النصح يعنى كتمان العلم، والضن بالخبرة والتجربة والخير على الآخرين . وهذا من الذنوب الكبيرة . إن النصح، والإخلاص فى النصح، والاهتمام بما فيه الخير للمسلمين ولكافة الناس، رسالة وامتداد لأعمال النبوات . والنصح لكتاب الله ولرسوله يكون بالمحافظة على الكتاب والسنة والتمسك بهما والعض عليهما بالنواجذ . كما يكون بتدبرهما والاهتداء بهديهما، وبنشرهما والدعوة إليهما . والنصح لأئمة المسلمين وحكامهم وخاصتهم يكون بالمشاركة الواعية والمستنيرة وتحمل المسئولية معهم . وهذه المشاركة (سواء كانت بالنصح المباشر أو عن طريق الصحافة وغيرها من وسائل الإعلام) – لا تؤدى وظيفتها على الوجه الأكمل إلا إذا كانت صادرة عن إخلاص وقائمة على الوعى والعلم والخبرة .

وأما عامة المسلمين فإنه إذا كان من الخيانة لله ولرسوله أن نكتم عنهم علمنا وبما أنعم الله به علينا، فإنه من الخيانة لله ولرسوله - كذلك - أن نداهنهم أو نتملقهم لسبب أو لآخر (انظر على سبيل المثال : ص٧ أهرام ١٩٨٣/٨/٨، وهو عن نفاق الجماهير وما ترتب عليه من أخطاء وأخطار في حق الشعب .

أخشى أن أكون قد أطلت، لكن الذى قدمت - مع ذلك - قليل من كثير، وأضيف : اسأل قلبك، وافعل كل ما تقتضيه مروءات الرجال، وما ينطلق من مكارم الأخلاق - فالإسلام ومكارم الأخلاق مترادفان .

الفصل الثالث

محمد فريد وجدى - المثل الحى للعالم المسلم

(٧)

مولده : بهامش (١) ص ٨٤ من كتاب الاستاذ/أنور الجندى عن «محمد فريد وجدى» – رائد التوفيق بين العلم والدين (طبعة ١٩٧٤ – الهيئة المصرية العامة للكتاب) – أنه (أى وجدى) توفى فى ٥/٢/١٩٥٤م وتاريخ مـولده فى رأى كل من أرخـوا له بين ١٨٧٥ – ١٨٧٨م. وفى خطاب خاص للمهندس محمد توفيق أحمد أنه سمع منه شخصياً أنه ولد عام ١٨٦٩ . (وانظر – أيضاً – «محمد فريد وجدى – حياته وآثاره للدكتور محمد طه الحاجرى طبعة ١٩٧٠ ص١٧ وما بعدها . (من مطبوعات – معهد البحوث والدراسات العربية – جامعة الدول العربية). (وقد ذكر التاريخين : ١٨٧٨ ، ١٨٧٥ . وبعد مناقشة الظان والقرائن – رجح أن مولده كان ١٨٧٨).

وإنى وإن كنت لا أنفى صحة القول بأنه ولد عام ١٨٧٨[١]، ولا أنفى صحة القول الآخر بأنه ولد عام ١٨٧٥[٢] – إلا أنى أرجح القول الثالث الذى رواه المهندس توفيق عن المترجم له (والمهندس توفيق صديق حميم لوجدى، وكان متأثراً به فى بعض ما يلزم به نفسه) – وإنى وإن كنت لا استكثر على العلامة الكبير، والعبقرى الفذ – النضج المبكر الذى يمكنه من تأليف كتابه الأول – «الفلسفة الحقة فى بدائع الأكوان» عام ١٨٩٦، أى وهو دون الثامنة عشر، أو الحادية والعشرين – فالأدنى إلى طبيعة الأشياء أن يكون حين كتبه قد ناهز السابعة والعشرين. ذلك أن الكتابة فى الفلسفة، وفى مثل هذا الموضوع، وباللغتين الفرنسية والعربية، وعلى نحو يحاول به إقناع غير المسلمين (من الفرنسيين بالذات) بصحة الأديان السماوية عامة، والإسلام خاصة، مما يقوى هذا الترجيح.

يترك المدرسة وهو فى المرحلة الثانوية
ويولى وجهه شطر «الجامعات المفتوحة والقراءات الحرة»

(٨)

كان وجدى – وهو فى أولى سنوات الشباب – وحين اتخذ هذا القرار – عظيم الثقة بالله وبنفسه. إن الشك الذى انتابه، وإن خيبة ظنه فى هؤلاء الذين كانوا يحضرون مجلس والده، وإن

---

(١) ، (٢) لا أنفى ذلك ولا أستبعده – فموزارت – مثلاً – قاد الفرق الموسيقية (التى كانت تعزف مقطوعات من تأليفه) وفى الحفلات الكبرى، داخل بلاده وخارجها – وهو ما زال صبياً !.

الآمال الكبار التى راودته فى خدمة الدين، وإثبات قضاياه بالعقل والعلم والفلسفة الحقة، وإن انصرافه - منذ البداية - عن متاع الدنيا وزخرفها من جاه أو مال أو منصب كان ذلك كله كافياً لأن يدفعه دفعاً إلى ما اندفع إليه فعلاً. ما قيمة الشهادة أو الشهادات، وما قيمة القشور التى تلقى على الطلاب والشباب فى المدرسة أو الجامعة، إذا كانت النفوس كباراً لا تستهويها ولا تغنى معها هذه الوريقات والسطحيات ! لقد اختاره الله لرسالة كبيرة، وعمل ضخم، تنوء بهما العصبة أولو القوة. ونهض بهما «وجدى» الذى كان «أمة فى رجل» !.

المناخ العام

(٩)

سواء كان فريد وجدى من مواليد ١٨٦٩م أو ١٨٧٥ - ١٨٧٨ - فإنه نشأ وترعرع فى ظروف كانت أقسى، أو من أقسى - ما مر بمصر فى تاريخها الحديث. ولد وجدى بالاسكندرية حيث كان يعمل والده. وتلقى تعليمه الابتدائى فى مدرسة عربية وأخرى فرنسية حتى نقل والده إلى القاهرة عام ١٨٩٢.

ومنذ أواخر الستينات من القرن الماضى سرت فى مصر حركة قوية متوثبة تهدف إلى (تمصير أداة الحكم) ونقل صلاحيات أو ولاية اتخاذ القرار إلى مجلس نيابى مكون من ممثلى الشعب. كانت المناصب العليا - المدنية والعسكرية - فى أيدى الشركس والأرمن والأتراك وغيرهم وعلى رأسهم الخديوى. ولما أفلح الطامعون فى مصر من الإنجليز والفرنسيين وغيرهم فى جر الخديوى إسماعيل إلى الاستدانة، والإسراف فى الاستدانة بفوائد باهظة (فضلاً عما يحصل عليه السماسرة)، ولما عجز الخديوى عن سداد الأقساط والفوائد تدخلوا فى شئون مصر بحجة المحافظة على حقوق الدائنين، وخلعوا اسماعيل الذى حل محله ابنه توفيق. وفى عهده كانت الثورة العرابية، وقمة الوثبة المصرية التى وقف فى وجهها الجميع من خصوم شعب مصر (من الداخل والخارج) الخديوى توفيق ومعاونوه من الخونة، والأوربيون وعلى رأسهم الإنجليز والفرنسيون. وانساق معهم السلطان (العثمانى) الذى أعلن تمرد عرابى وزملائه، وخروجه على السلطة الشرعية.

وباسم السلطان، وزعت فى مصر آلاف المنشورات التى تتهم عرابى وصحبه بالخيانة! وفى الاسكندرية، وفى عام ١٨٨٢ - حين كان المترجم له طفلاً أو صبياً - اصطنع أعداء مصر الفتن بين المصريين والأجانب، لتبرير ضرب الأسطول الإنجليزى حصون المدينة الباسلة.

ولما يئس العدو من اقتحام التحصينات - فى كفر الدوار تحول إلى قناة السويس، ودخلها بتآمر الإدارة الفرنسية معه. وكانت معركة التل الكبير، وكانت الهزيمة وكان الاحتلال الإنجليزى

لمصر الذى استمر فيها حوالى ثلاثة أرباع القرن. ولا ريب أن المترجم له (طفلاً كان أم صبياً) عاش جو الفتن التى اجتاحت الاسكندرية. وسمع طلقات مدافع المعتدى الغادر وهى تدك دفاعاتها بلا هوادة ! ولا ريب أنه عاش (البلبلة) التى صاحبت الهزيمة وأعقبتها، ثم هذا الركود السياسى الذى خيم على المناخ المصرى إلى أن انطلق فيها صوت مصطفى كامل الذى كان المترجم له أحد أعوانه! نعم كانت بلبلة وكانت فتن، وكانت شائعات، غذّاها المحتل وأشعلها على مدى العقود التى احتل فيها ديارنا وكانت كلها تركز - بالذات على أن نفقد ثقتنا فى أنفسنا..! وفيما يلى بعض الشواهد :

جاء فى المقال الافتتاحى [1] للدستور (عدد ١٩٠٧/١١/٢٣) وهو بعنوان - كيف نعيش كراماً؟ «مضى على المصريين عهد كانوا - لضعف شعورهم الوطنى - إذا ضمهم مجلس، اعتز أحدهم بأنه من الغُز[2]، واعتز الآخر بأنه من الچراكسة، أو من السوريين أو العرب. ومن لا يجد نسباً أجنبياً أغضى طرفه انكساراً. ولسان حاله يقول :

«فغض الطرف إنك من نُمَيْرٍ ... فلا كعباً بلغتَ ولا كلابا»

وبعد أن يشير إلى أمجاد المصرى - كمصرى وكمسلم - يقول : إنه لا ينقصنا إلا الاستقلال وثمن الاستقلال وأسسه هى الفضائل - هى الأخلاق. وقد أجاد شاعرنا شوقى حيث قال :

«إنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا».

وفى نفس العدد من نفس الجريدة (ص٢) مقال بعنوان «حقوق الوطن» بقلم محمد كامل السويفى وفيه أن الإنكليز دخلوا مصر لتهدئة الثورة التى أنتجتها الحركة الطائشة - ويشير إلى حديث للخديوى مع جريدة الطان الفرنسية، وفيه أن الأمة المصرية رشيدة، وقد حان الوقت لاستقلالها .. (وانظر - أيضاً - كتاب الدكتور الحاجرى عن وجدى (ص٢١ هامش ١) وفيه نقلاً عن الدستور - وصف للثورة العرابية بأنها حركة طائشة دبرتها الدسائس الأجنبية للقضاء على الحركة الوطنية ..(الدستور عدد ١٩٠٧/١١/١٦) - وهو العدد الأول من الجريدة - وأقول - مع الأسى البالغ - أن أعداد الأسبوع الأول من الدستور صارت ممزقة كل ممزق، فلم أتمكن من قراءة العدد المذكور الذى كنت حريصاً على الاطلاع عليه.

وأضيف إلى ما تقدم ما جاء فى السطور الأولى من المقدمة التى كتبها المرحوم الاستاذ/محمود الخفيف لكتابه «أحمد عرابى - الزعيم المفترى عليه» (من جزءين، بهما ٦٩٢ صفحة - كتاب الهلال - العددان ٢٤٥ ، ٢٤٦ - يونيو ويوليو ١٩٧١) - كتب «كان المصريون

---

(١) المقال بدون توقيع، وهذا يعنى أنه لصاحب الجريدة ومديرها.

(٢) يعنى بهم الأتراك.

إلى عهد قريب يذكرون اسم عرابى، فلا يبتعث هذا الاسم - وأسفاه فى أذهانهم إلا صور العنف والنزق، ونراهم - وإن لم يقصدوا - يقرنون اسم عرابى بمعانى الهزيمة والاحتلال والمذلة كأن هذه المعانى من مرادفاته. وما أذكر مجلساً تطرق الحديث فيه إلى عرابى إلا وسرت فى الوجوه كآبة، وتسابقت الألسن إلى الهزء به وتعديد مساوئه وإبراز مثالبه، اللهم إلا قلة لا يعجبهم هذا الكلام ولكنهم لا يعرفون كيف يدافعون عن هذا الظلم..».

أقول : لقد أشرت فى كثير مما كتبت إلى الفلاح المصرى البطل «أحمد عرابى» - من ذلك كلمة حماسية فى العدد الخامس من السنة الأولى يناير ١٩٥٢ من مجلة (المعلم الأول ص٢٧ وما بعدها - بعنوان «دور المعلم الأول - بعد إلغاء المعاهدة» - وبعد أن قلت - مما قلت - عن مصر: إنها هى التى نهضت بقيادة عرابىَ نهضة لو قدر لها النجاح لكانت إحدى الدول العظمى[1]. - ثم قلت «ولكنه الاستعمار البريطانى البغيض الذى كان يتربص بنا والذى استعان بنفر منا علينا، فأحال نهضتنا نكسة، وأفقدنا حريتنا وكرامتنا واستقلالنا واستنزف مواردنا وامتص دماءنا، وأشاع الجهل والفقر والمرض فينا وسلط عاداته السيئة علينا، وساق الانحلال إلينا. إنه الاستعمار البريطانى الخبيث الذى لم يكتف بغزو أرضنا بل غزا قلوبنا وعقولنا فشوه تاريخنا وحاول أن يفقدنا الثقة بأنفسنا، وبكل عزيز لدينا وصورنا أمام أنفسنا شعباً يتخذه الغالب مطية له. وهى فرية اختلقها هؤلاء الأعداء ورددها الجهلاء حتى صرنا نجد من بيننا من يسىء الرأى فى ماضينا وحاضرنا ويتشكك فى مستقبلنا..». وفى كتابى «الإسلام وحقوق الإنسان دراسة مقارنة» (طبعة ثانية ص١٦٩ وما بعدها وتحت عنوان «فى ميدان عابدين - موقف تاريخى للشعب المصرى فى وجه ظالميه». قلت : «فى اليوم التاسع من سبتمبر ١٨٨١ وفى ميدان عابدين بالقاهرة - وقف شعب مصر (يتقدمه فلاح مصرى) - موقفاً تاريخياً عظيماً فى وجه حاكم مصر الخديوى توفيق. إنه يوم من أيام الحرية فى تاريخ الشعوب، ومن أجل كل الشعوب. ولم يبدأ هذا اليوم من فراغ .. إلى آخره».

---

(١) فى تلك الفترة، وما قبلها كانت اليابان (الشمس المشرقة فى آسيا) - دائماً فى الأذهان وكانت نهضتها ترجع إلى تاريخ قريب من تاريخ نهضتنا فى القرن الماضى.

(١٠)

أصدرت السياسة (بالتعاون مع سكرتارية مؤتمر الطلبة الشرقيين) – ملحقاً للعدد ٢٩٣١ بتاريخ ١٤/١٠/٣٢ خاصا بهذا المؤتمر. وبالصفحة الرابعة عشر من هذا الملحق مقال(١). «للعلامة الكبير الاستاذ فريد بك وجدى»(٢). وأعتقد أن وصف «العلامة الكبير» وصف صادف أهله. وقد سبق أن أشرت إلى أن الفتى فريدا قد ساوره شك فى «الغيبيات عامة»، وهو ما زال فى سن مبكرة. ولما لم يجد لما ساوره شفاءً ولا اقتناعاً عند العلماء الذين كانوا يحضرون مجلس أبيه – اتخذ قراره الجرىء بالتحرر من قيود الدراسة بالمدارس والمعاهد، وتفرغ بكل الشوق للقراءة الحرة. وانفتحت أمام هذا الهائم بحب العلم والمعرفة والحقيقة الأبواب الواسعة، فنهل واستوعب ما شاء الله له أن ينهل ويستوعب من ثقافات وحضارات الشرق والغرب قديمها وحديثها. وأعانه على ذلك إجادته للغتين العربية والفرنسية. قرأ واستوعب فى اللغة وفنونها. وقرأ واستوعب فى القرآن وعلومه، والحديث وعلومه، وقرأ واستوعب وتعمق فى علم العمران (الاجتماع)، كما قرأ واستوعب فى التاريخ وغيره، والفلسفة وفروعها قديمها وحديثها .. إلى أخره. مع الحب (حب المعرفة)، ومع الاستيعاب، وعلى مدى سنين غير قليلة، فاض خاطره بما كتب ونشر من مؤلفات عديدة، ومقالات كثيرة جداً جداً فى الصحف والمجلات(٣).

أخذ الرجل على عاتقه، وحمل فى رأسه وعلى ظهره، مسئوليات كبيرة : الدفاع عن الأديان السماوية عامة ضد الإلحاد، والدفاع عن الإسلام ضد أعدائه. اهتم بتفنيد «الفلسفة المادية» وأبان. خير بيان وأقواه عن الآثار التدميرية لها. وعاش حياته كلها يدعو إلى عبادة الإله الواحد الذى لا شريك له، وإلى أنه لا خلاص للفرد والجماعة والجماعات إلا فى الإسلام الذى ختم الله به ما أنزل من أديان، والصالح لكل زمان ومكان والمستجيب لكل حاجات الجسم والروح والعقل والدنيا والآخرة.

لقد جدد وبعد قرون – عهود فقهائنا الموسوعيين، من أمثال السيوطى(٤) وابن منظور(٥)

---

(١) المقال بعنوان : «مؤتمر الطلبة الشرقيين – آثاره فى بناء وحدة الشرق».

(٢) هكذا وللمترجم له مقال بعنوان « إبطال الرتب والنياشين – سيأتى ذكره » (بند ٢٤).

(٣) للمترجم له كتب ضخمة كثيرة. ولو جمع ما كتبه ونشره فى مجلة الأزهر على مدى عشرين عاماً، وقد كان رئيس تحريرها – لزاد وأربى عما تضمنته كتبه. وهذا فضلاً عما نشره فى المؤيد واللواء، والدستور «ومجلة الحياة» وغيرها وستأتى كلمة عن «الوجديات» التى نشرت فى هذه المجلة الأخيرة وقد كان صاحبها ومحررها (وانظر – الجندى – نفسه ص٧ و ص٨٤ وما بعدها وص١٨٨ وما بعدها وفيها بيان بمؤلفاته وآثاره المكتوبة.

(٤) عن «عبدالرحمن السيوطى» – انظر على سبيل المثال – رضا كحالة – معجم المؤلفين – جـ٥ ص١٢٨ وما بعدها ومما جاء فيه : استقصى الداودى مؤلفاته فنافت عدتها على خمسمائة مؤلف.

(٥) وعن «ابن منظور» (محمد بن مكرم) كحالة نفسه جـ١٢ ص ٤٦ وما بعدها . من مؤلفاته : لسان العرب فى عشرين جزءاً ومختار الأغانى فى ثمانى مجلدات .. إلى آخره.

والغزالى[1] وغيرهم [2] ، وعلى نحو لا يفوته منه التراث كما لا تفوته منه علوم معاصريه فى الشرق والغرب، وفى كل فروع المعرفة.

ومن أهم كتب وجدى الموسوعية «دائرة معارف القرن الرابع عشر الهجرى - العشرين الميلادى» (فى عشرة مجلدات كبيرة) (٣). يقول المؤلف فى التعريف بالدائرة «إنها قاموس عام مطول للغة العربية والعلوم النقلية والعقلية والكونية بجميع أصولها وفروعها، ففيها .. وفيها .. وسائر ما يهم الإنسان فى جميع المطالب». ويقول فى مقدمتها : كنا «وضعنا كتابنا «كنز العلوم واللغة» قبل خمس سنين، وكان غرضنا الأول منه أن نحصر خلاصة معلومات البشر كلها فى دائرة واحدة ليلم بها المطالع إلماماً جملياً .. وقد لقى عملنا هذا غاية ما يتاح لمثله من الإقبال والتقدير، سواء من جانب الأمة أو من جانب الهيئات الرسمية.. ولكننا اليوم - وقد آنسنا من وقتنا فراغاً ذكرنا حاجة الأمة إلى دائرة معارف أغزر مادة وأجمع فوائد .. لتكون بإزاء «كنز العلوم واللغة» كدائرة معارف لاروس الكبيرة بإزاء قاموسه الصغير .. إلى آخره «وقد كتب الكثيرون مقدرين وناقدين «كنز العلوم واللغة» و«دائرة المعارف عند ظهورهما . وقد عتب «عبد القادر المغربى» على مؤلف «كنز العلوم واللغة» إذ فاتته الكتابة فيه عن «ابن تيمية» ومكانته معروفة بين رجال الفقه الإسلامى. (ولكن جل من لا يسهو) أما عن دائرة المعارف فأشير هنا إلى ما كتبه الدكتور هيكل عنها (انظر له - المرجع السابق الطبعة الثانية ص١٥٩ - ١٧٦). وبعد أن أفاض المرحوم هيكل فى النقد، قال : «على أننا آخر الأمر لا نستطيع أن ننكر على المؤلف أنه بذل جهوداً كبيرة لإقامة بناء فخم .. (وإذا كان قد فاته ما فاته) فقد يكون لسواه أن يخرج من جهده هذا خيراً للناس، وأن يُعترف لصاحب الدائرة بفضل السعى للخير وللإحسان».

أقول - تنويها بقدر الرجل - إنه قد أخرج دائرته فى العقد الثانى فى هذا القرن (العشرين) وها نحن أولاء فى العقد الأخير منه، وما زالت «دائرة معارف» وجدى هى الوحيدة (باللغة العربية) التى غطت ما غطت من معارف من حرف (أ) إلى حرف (ى) ذلك أن رصيفتها «دائرة معارف البستانى» توقفت دون أن تكمل حرف (ص).

---

(١) وانظر عن الغزالى - كحالة جـ١١ ص ٢٦٦ (محمد بن محمد - حجة الاسلام - أبو حامد من أشهر مؤلفاته) «إحياء علوم الدين» وله أكثر من مائتى مصنف» (أعلام الإسلام) الاستاذ أنور الجندى - دار الاعتصام ١٨١ . «كان فى صميم نفسه يعانى موجة عاصفة من الشك. وقد جاهد وجاهد، وتأمل، وبحث ودرس حتى أتاه اليقين (المرجع السابق، ونفس الصفحة) . وبين الغزالى وبين المترجم له شبه فكلاهما بدأ بالشك.

(٢) إلى الأمثلة المذكورة أضيف عن الموسوعيين الإسلاميين ابن حجر العسقلانى صاحب كتاب «فتح البارى» «وزادت تصانيفه على مائة وخمسين» (الجندى - نفسه ص٧٤) إلى آخره. إن تراثنا العربى والإسلامى غنى جداً. جداً.

(٣) «فى أوقات الفراغ» ص ١٦١ للدكتور محمد حسين هيكل (فى سياق نقد للدائرة المذكورة سيأتى بعد). أن الطبعة الثانية منها تقع فى عشر مجلدات كل مجلد منها ٨٠٠ صفحة عدا السابع فصحفه ٩٦٠ والعاشر فصحفه ١٠٥٦، فمجموع صفحاتها جميعاً ٨٤٢٦.

ولو كانت الأمور تجرى كما ينبغى أن تجرى لأولت «المنظمة العربية للثقافة والتربية والعلوم» (الأليسكو) (بجامعة الدول العربية) - أكبر الاهتمام لإخراج دائرة معارف على مستوى دائرة المعارف البريطانية (على سبيل المثال) - وعلى نمطها من مداومة الإضافة إليها عاماً بعد عام.

والدول العربية قادرة بما لديها من مال وعلماء على هذا الإنجاز. لكن التنسيق والتعاون بينها، وكما ينبغى أن يكونا (فى هذا الشأن وغيره) لم يتما حتى الآن. وما أكثر الطاقات التى نهدرها بسبب عدم الاهتمام والتعاون والتنسيق.

الإمـــام

(٩٩)

نشر «الدستور» عدة مقالات بعنوان «كيف يسترجع المسلمون مجدهم التالد» - الحاجة إلى المصلحين والزعماء». والمقال الذى انقل عنه ما سيأتى - وهو المقال الخامس - وكاتبه هو السيد محمد المتيم من «أبو كبير» - هو المقال الافتتاحى بالعدد رقم ٢٣٠ بتاريخ ١٣٢٦/١١/١٥ (١٩٠٨/١٢/٩م) ومما جاء فيه : «.. وكان أول من بدأ بالإصلاح محمد بن عبد الوهاب .. ثم جاء من بعده حكيم الشرق والإسلام جمال الدين الأفغانى .. وتعهد غرسه من بعده فى مصر - الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده .. وساعده - فيما حمله على كاهله المرحوم الكواكبى .. وقام ومن بعدهم استاذنا الإمام فريد بك وجدى .. ومما يجب على المصلح أن يكون .. أبى النفس لكى لا ينقاد للدنيات». وقد رفض المرحوم جمال الدين قبول مبلغ الألف جنيه الذى حمله إليه دولتلو رياض باشا عندما صدر الأمر بإبعاده عن مصر - رفض مع حاجته الماسة لليرة منه. لقد ضرب جمال الدين بذلك أروع مثل للترفع وعلو النفس .. واستطرد الكاتب وقال :

«وفيما أرويه عن وجدى بك ما يماثل ذلك من إباء النفس وكرم الخلق والأسوة لسواه». قال الكاتب : «كنت معه ذات يوم فى أول إنشاء الدستور وفيما هو يحدثنى فى ضرورة شراء مطبعة، وأنه عازم على شراء مطبعة المرحوم درى باشا - وإذا برجل يدخل علينا وينبئ الأستاذ بأن «أمين هندية» فى حاجة إلى هذه المطبعة - وأنه سيعطى فيها عطاءه حتى ترسو عليه .. فقلت له : بما أن احتياجك إليها عظيم وإذا تغاضيت ربما تفضى المزايدة إلى إبلاغ الثمن درجة فاحشة - فهل لك أن ترسل إليه رسولاً يكفيكه حتى لا تغبن؟ فقال : حاشاى أن استعمل الخديعة لنيل رغائبى! فله أن يزيد ما شاء، وعلى المضاعفة، حتى إذا بلغت قيمتها كانت لى أو له! ولا نبخس الورثة! ولم يكد يفرغ من عبارته حتى أخذتنى الدهشة وتولانى الاستغراب. ولم أدر إذ ذاك هل الذى يخاطبنى صَفِىّ أم ملك من السماء أم بشر عادى..!

وأقول : تعقيباً على ما تقدم إن من يراجع سيرة المرحوم فريد وجدى، ويلاحظ مثاليته ونبله فى زمن عمت فيه الأنانية الكريهة وطمت وفشت فيه الفتن، يقول على الفور : «أنعم بعالم تجسدت فيه وراثة النبوة!».

وإذا كان الكاتب قد أطلق على فريد وجدى اسم «الإمام» فإنها تسمية تلقى القبول لدى كل عارفى فضله.

وتحضرنى هذه القصة عن شوقى الذى كان شاعر الأمير «عباس حلمى» وكان صاحب حظوة عنده. وفى عام ١٩١٤ (وكان الخديوى عباس فى عاصمة الخلافة) عزله الإنجليز ومنعوه من العودة إلى مصر. وكان الخديوى قد أوعز إلى شوقى بترك مصر فسافر إلى أسبانيا وأقام فيها سنين عدداً. ولما عاد إلى مصر - بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى لم يفلح فى أن يبلغ من قلب فؤاد المكانة التى كانت له لدى عباس .. ولم يحصل بالتالى على رتبة الباشوية»، التى حصل عليها الكثيرون من الأميين واشباه الأميين بالرشوة ! وفى آخريات سنوات شوقى، اجتمع الشعراء والأدباء العرب، وأجمعوا على مبايعته بإمارة الشعر. لقد كان المحيطون بشوقى، وعارفو مكانته يخاطبونه بلقب «الباشا» وأقول : إنه إذا لم يكن الجالس على عرش مصر وقتئذ قد منحه هذه الرتبة، فقد منحه إياها شعب مصر، بل والأمة العربية عن طريق هؤلاء الذين بايعوه «أميراً للشعراء» أذكر هذه لأقول : ما أكثر هؤلاء الذين أطلقت عليهم الجهات الرسمية، صفة «الإمام»! أما الشيخ محمد عبده، وأما الأستاذ وجدى فقد كانا «إمامين بحق»، ورغم أنف الجهات الرسمية ثم - وهو الأهم - فإن كثيراً من هؤلاء من نوى الحظوة لدى الحكام ممن باعوا آخرتهم بدنياهم.!

المصحف المفسر

(١٢)

لوجدى تفسير للقرآن الكريم - أسماه «المصحف المفسر» قال : إنه وضع هذا التفسير مستمداً إياه من أقوال أهل السنة وأقطاب المفسرين خالياً من المصطلحات الفنية توفية لحاجة هذا العصر.

وفى المقدمة كتب : إنى حوالى عام ١٣٢٣ هـ - حاولت أن أقرأ القرآن قراءة تدبر وفهم ... فأعوزنى أن أجد من التفاسير ما يبلغنى أمنيتى من أقرب الطرق وأسهلها .. فأخذت أضع تفسيراً لنفسى، وشرعت أكتبه على هامش مصحف لأتخذه عمدة لتلاوتى للقرآن الكريم .. وقبل أن أتمه أدركت أن هذا العمل طلبة كل قارىء للقرآن العظيم، فرأيت أن أتم ذلك التفسير وأطبعه ليعم انتشاره والنفع به. وقد فعلت. **أقول** : والتفسير يسير على النهج التالى :

على هامش كل صفحة من القرآن الكريم «تفسير الألفاظ» ثم تفسير موجز للمعانى. يقول وجدى : إنى استخلصت هذا التفسير من الآراء المجمع عليها لدى أئمة المفسرين وأقطاب أهل السنة . وقد راعيت فى تفسيرى هذا أن أعنى باللغة عناية لم يعن بها مفسر من السابقين، فشرحنا المفردات شرحاً وافياً، ودللنا على أصولها وأتينا بمشتقاتها .. إلى آخره.

أقول : إن أعداء الإسلام والقرآن كانوا – وما زالو – كثيرين .. وفي كتب التفسير كثير مما يسمى بالإسرائيليات التي لا تكاد تخلو منها كتب التفسير القديمة والحديثة، أو معظمها. وما زالت اسرائيل – حتى اليوم تنشر «المصحف الشريف» في بقاع كثيرة من العالم بعد أن تحذف منه ما تشاء وتحرف منه ما تشاء. كل هذا بدافع الهوى والكيد والحرب للدين الخاتم. وقد جاء في المصحف المفسر لوجدي ما سأذكره بعد إثبات الآيتين ٣٦،٣٧ من سورة الأحزاب ونصهما : **«وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا. وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه، فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج ادعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولاً».**

كانت عادة العرب قد جرت ألا يتزوج الرجل امرأة دَعيِّه الذى تبناه، وأراد الله أن يبطل تلك العادة، ويبطل ذلك الذى كانوا يتحرجون منه فى الجاهلية، فأوحى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يزوج زينب ابنة عمته بزيد بن حارثة متبناه، وأن يتزوجها بعد طلاقها منه. وقد أبت زينب وأخوها الزواج من زيد، فنزل قوله تعالى : **«وما كان لمؤمن ولا مؤمنة .. إلى آخر الآية ٣٦ السابق ذكرها»** فلما سمعاها قالا : رضينا يا رسول الله. لكنها بعد الدخول بها أخذت تفخر بنسبها وتتعالى على زوجها وتسىء إليه. وكان زيد يشكو لرسول الله فيقول له : أمسك عليك زوجك. إلى أن غلب أمر الله تعالى فأذن لزيد فى طلاقها، وتزوجها رسول الله طائعاً لأمر ربه، **«لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا»** (أى دخلوا بهن). وانظر أوضح التفاسير لابن الخطيب – الذى يقول : تخبط أكثر المفسرين فى تأويل الآية ٣٧، وابعدوا فى اتباع ما حكاه أعداء الدين فى الدين، وجاروا ما أذاعه اليهود طعناً فى الرسول الكريم ..

وأقول : إن النقل عن السابقين شائع فى كتب التفسير، وقد نقل وجدى – رحمه الله – عن أحدهم ما يلى عن الآية ٣٧ السالف ذكرها : نزلت الآية والتى قبلها فى زينب .. وزيد بن حارثة معتوق رسول الله «ثم إن النبى عليه الصلاة والسلام رأى زينب (بعد زواجها)، فوقعت فى نفسه فقال: سبحان الله، مقلب القلوب! فذكرت زينب هذا لزوجها زيد فكلم النبى صلى الله عليه وسلم فى طلاقها محتجاً بأنها تتكبر عليه لشرف نسبها، فنهاه عن تطليقها. وذكر الله ذلك فقال: «وإذ تقول للذى أنعم الله عليه بالإسلام، وأنعمت عليه بالعتق. احتفظ بزوجك واتق الله وتخفى فى نفسك من نية التزوج لو طلقها زيد، ما الله مبديه، وتخشى تعيير الناس إياك به، والله أحق أن تخشاه. فلما قضى زيد منها حاجة فى نفسه بحيث ملها وآثر فراقها زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى التزوج بمطلقات الملتحقين بهم فى النسب، إذا قضوا حاجتهم منهن، وكان أمر الله كائناً لا محالة. وأقول عما قاله وجدى «لكل عالم هفوة، ولكل جواد كبوة» وأضيف أن ما نقلته عن أوضح التفاسير (بتصرف) هو الصواب فيما أرى، والله أعلم.

هذا عن «المصحف المفسر لوجدى» وهو أحد قسمى كتاب له بعنوان «صفوة العرفان» فى تفسير القرآن» أما القسم الآخر فهو «المقدمة» التى تقع فى ١٨٠ صفحة كبيرة. وقد طبعت على حدة ومما جاء فيها : «إننا لم نضع من فكرنا الخاص شيئاً فى المعنى الجوهرى للآيات .. أما الذى لنا فى هذا الكتاب، مما نعده ثمرة اجتهادنا فهو مقدمة كبيرة فى تاريخ القرآن الكريم، وكيفية نزوله، وتعدد قراءاته، وكيفية حفظه وترتيبه واستنساخه، واستلفات القارىء لمعجزته العلمية الكبرى التى تشهد بأنه كتاب الله المنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم، وإقامة الأدلة الفلسفية على حفظه من التبديل والتحريف، ونقل شهادات كبار رجال العلم الأجانب على ذلك. ويسبق ذلك فذلكة فى فلسفة الأديان .. (انظر كتاب الحاجرى – فصل ١٠).

وأذكر فى ختام هذا البند كمثال على ما فى «المصحف المفسر» لوجدى من ثمرات اطلاعه الواسع فى مختلف فروع الفلسفة والعلم، وخاصة ما يتعلق بالعلوم الكونية أذكر – كمثال – تفسيره للآية ٣٠. من سورة الأنبياء، وهى : «**أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون**» قال : أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا جميعاً كتلة واحدة. ففصلنا بعضها عن بعض وجعلناها (مجموعات كالمجموعة الشمسية. التى بها الشمس وكواكبها كالأرض، وتوابع هذه الكواكب كالقمر التابع للأرض). وجعلنا من الماء كل شىء حى، أى كل حيوان، وكل نبات، أفلا يؤمنون». ثم أضاف : هذا من معجزات القرآن فإن العلم الحديث أثبت ذلك حرفيا».

ما وراء المادة - قوة تأثير الإرادة

(١٣)

رصد وجدى حياته الفكرية كلها للدفاع عن الأديان ضد الإلحاد، والدفاع عن الإسلام ضد أعداء الإسلام. والناس أعداء ما جهلوا. ما أكثر ما كتب وجدى عن «الفلسفة المادية» ونتائجها «المدمرة» وما أكثر ما كتب عن الروح وخلود الروح، وما فى ذلك من بناء العمران، وسعادة الفرد والمجتمع فى الدنيا والآخرة. لقد كان هذا الموضوع، وما يتعلق به، يكاد يكون باباً ثابتاً فى الدستور. ومن ثمار وجدى الفكرية «دائرة المعارف»، التى كتب فيها عن «الروح الإنسانية» ثمانين صفحة من ص٣٢١ إلى ٤٠٠ من المجلد الرابع. بدأ هذه الصفحات بقوله : «مسألة الروح الإنسانية وخلودها من أكبر المسائل الفلسفية وقد تنازعتها الفلسفات المتضاربة بالإيجاب والسلب قروناً طويلة ...» وختمها بقوله : «ونحن نقول – بعد عرض هذه الأقوال أمام نظر القارىء – إن حركة الاعتقاد بالروح فى عصرنا تفوق كل حركة تقدمتها. وإن البرهان المحسوس على وجود الروح وخلودها صار على طرف التمام لكل طالب. فياليت رسل الظلام يفتحون أعينهم لمشرق هذا النور المنبعث فى كل مكان فيقلعوا عن تسميم النفوس بكتاباتهم الإلحادية. والله من ورائهم محيط.


BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

أمضى بعد هذا إلى «الدستور» (العدد ٤٩ المؤرخ ١٢/١/١٩٠٨م) وأنقل خلاصة لما جاء فيه تحت العنوان سالف الذكر قال : فى كتب الصوفية عن تأثير الإرادة القوية ما كان يعده البعض من الخرافات. ولكننا الآن فى عصر قد تولى فيه العلم الرسمي بحث القوى النفسية. ومماورد إلينا فى المجلة الروحية هذا الشهر تحت عنوان «ليلة عجيبة» أن أحد الهنود، واسمه (ساراك) حضر إلى باريس ووسط جماعة من كبار الباحثين، جلس بحيث يرون كل حركاته، ورفع يديه إلى أعلى، وبيده قطعة من الطين قُدمت إليه من أحد الحاضرين، ثم قام أحدهم وزرع فيها قمحا عادياً، ورش عليها آخر قليلاً من الماء من كوب شرب منه ساراك جرعة. وأخذ ساراك يتلوا العزائم ويركز إرادته ... فشاهد الحاضرون بروز ساق خضراء للقمح أخذت تطول بسرعة مدهشة .. ثم أخذ من أحد الحاضرين بطاقة ومزقها إلى ثلاث قطع ووضعها فى يده، وأخذ يتلو العزائم ويَركز إرادته. ولما فتح يده لم يجد الحاضرون إلا قطعة واحدة. أما الأخريان فقد دلهم على مكانيهما، وقد وجدوهما حيث قال.

علق الدستور على ذلك بقوله : «وهل بعد هذه الأمثلة يصح أن ينكر أحدنا ما يروى عن الصالحين من المدهشات الخارقة للعادة؟! ثم يقول ما خلاصته، أنا لا أنصح بتصديق كل ما يقال، وأنصح أيضا بعدم التعجل فى التكذيب.

زيـارة المـوتـى

(١٤)

تحت هذا العنوان كتب محمد فريد وجدى مقالا بالعدد (٥١ – المؤرخ ١٧/١/١٩٠٨م) – ومما قال فيه ماذا يَعْرُو موتانا من الدهشة والاستغراب – وهم فى عالمهم الروحانى – حين يروننا وقد جعلناهم نسيا منسيا، ونبذنا أمرهم وراء ظهورنا، ولم يشغلنا منهم إلا ما ورثناه عنهم» فلنتق الله فى موتانا، ولا نقطع ما بيننا وبينهم من صلات الحب والود – فإنهم – فى عالمهم – أحيا منا أرواحاً ! هذا «مع وجوب الحرص على عدم انتهاك حرمات المقابر بإتيان البدع .. بل بأن يتعهد كل منا موتاه بأن يجعل لهم كل يوم ورداً من القرآن الكريم يقرؤه لهم بنفسه، وأن يخصهم من ماله بدريهمات يوزعها كل يوم صدقة عنهم للفقراء.

أقول : فى الحديث الشريف «كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها» (أو كما قال). وفى حديث آخر «إذا مات ابن آدم انقطع عمله وثوابه إلا من ثلاث : صدقة جارية، وعلم يُنتفع به، وولد صالح يدعو له» أو كما قال.

وفى الأثر أن الموتى يروننا ويسمعوننا، ولا نراهم ولا نسمعهم. (أو هكذا جاء فى الأثر) والدعاء إلى الله أن يوفقنا لكى يكون منا لموتانا مايرضيه عنهم وعنا!.

وأضيف أن زيارة القبور إنما هي للعظة. وكفى بالموت عظة. والمطلوب منا هو الترحم عليهم والتصدق عنهم وتلاوة القرآن والدعاء لهم. يجب أن تبقى الصلة على هذا النحو حية وقوية ومستمرة مهما كانت المسافات بيننا وبين قبورهم!.

وجدي بعد أربعين عاماً من اعتزاله الحياة العامة

(١٥)

بعد عمل متصل في خدمة العلم والدين، وبعد حياة حافلة وجادة في التأليف والعمل السياسي والصحافي وبعد إنتاج غزير قليل النظير، وبعد كفاح كريم ونبيل وطويل، حملت لواءه في معارك القيم الأخلاقية الإسلامية ضد النزعات المادية «النفعية» واللاأخلاقية، وبعد أكثر من ستين عاماً مجاهداً في أكثر من جبهة، وقد أمضيت العشرين الأخيرة منها في رئاسة تحرير مجلة الأزهر وتطويرها إلى الأفضل والأشمل. بعد هذا كله، وأكثر من هذا كله، اعتكفت عام ١٩٥٢ مع نفسك وأهلك في بيتك. وبعد عامين من هذا الاعتكاف انتقلت عام ١٩٥٤ إلى جوار ربك مرضيا عنك في السموات والأرض من الرب ومن الخلق.

وإني أتساءل : ماذا كان، وماذا صار إليه أمر المصريين والعرب والمسلمين من بعدك وأبناء جيلك؟ بفضل الله ثم بفضل كفاحكم وتضحياتكم انزاح عن أرضنا وصدورنا الاحتلال العسكري الأجنبي، وكنتم تأملون وكنا نأمل بعد زوال هذا الاحتلال أن تصير الأمور إلى الشعوب التي تحكم بما أنزل الله «من الشورى والعدل بكل صوره». ومع الأسى البالغ، فإن الأمور قد أتت على غير ما كنتم تشتهون، وما كانت تشتهي الشعوب التي طالت معاناتها، وتفاقمت أدواؤها !.

وثب العسكريون في بعض بلادنا إلى كراسي السلطة(١). وكلهم جاءوا والشعارات الديمقراطية والاشتراكية والثورية! ومن المضحكات المبكيات أن رأس هؤلاء الذين صاروا حكاماً لأحد أقطارنا كان دون الثلاثين وفي قطر آخر كان دون الخامسة والثلاثين، وفي ثالث ورابع وخامس كانوا في مثل هذه السن أو أكثر بقليل وهؤلاء حتى لو افترضنا فيهم حُسن النية وسلامة القصد والطوية، فإنهم كانوا قليلي الخبرة، وليسوا أكفاء لتولي شئون «دولة» ! لقد صار اتخاذ القرارات أسير اللهو والطيش والغرور. وكان طبيعياً أن ننتكس وخاصة أنهم لم يستعينوا بالله وثقة الشعوب وإنما بكم الأفواه، وإقامة هياكل وهياكل للتنصت والتجسس والقهر والتصفية الجسدية.. لقد شغلنا بعضهم بمغامرات خارجية فقدنا بسببها الأرض والكرامة، وضيعنا الرجال، وبددنا المال. وفي فترات وفترات، وفي كثير من الحالات كان كيدنا وبأسنا بيننا. ولما

---

(١) كانت السلطة هي هدفهم – انظر على سبيل المثال «خالد محيي الدين» في كتابه «والآن أتكلم» (خاصة الفصول من ١٦ إلى ٢٥).

كان همهم جميعاً هو الاستمرار في السلطة فقد استعملوا سلاحي الترغيب والترهيب، فساد النفاق، وفسدت الأخلاق. وأمرنا اليوم - وفي كثير من أقطارنا - لم يعد بأيدينا . وإنما بأيدى دائنينا، الذين صاروا يتحكمون فينا، وكيف لا يفعلون؟ ونحن نعتمد عليهم في رغيف الخبز، وقطعة السلاح؟!.

ومنذ أسابيع، وفي انتخابات حرة أجرتها «السلطة» قرر شعب الجزائر اختيار «الدولة الإسلامية». وقد تآمر أعداء الشعوب في الداخل وأعداء الإسلام والمسلمين في الخارج، على وأد الوليد وهو في المهد؟! إنها مهزلة المهازل، وإنها مأساة المآسى. وإنها من جهة أخرى تباشير النصر، تبدو وفي كل الآفاق. والله غالب على أمره!.

أما على المستوى العالمي، فالكل يخشى من مفارقة خطرة : تطور مادي مذهل وتدهور ديني وخلقي محزن! ودوام الحال من المحال! إن الظروف تتجمع وتتهيأ لميلاد سعيد وفتح جديد. إن المولى جل وعز قد : «أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله». وإنه تعالى قد أرسله للعالمين ، «للناس كافة بشيراً ونذيراً» إن الإسلام دين عام عالمي. والإسلام دين بسيط، ما أكثر ما دخل قلوب الناس في سهولة وجماع الإسلام : إيمان وعمل صالح. إيمان وإحسان. إيمان وإتقان. «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا» (سورة الكهف). «بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه» (أيــه١١٢ - البقرة). «والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات. وتوا صوا بالحق وتوا صو بالصبر» (سورة العصر). ولقد يسر الرسول عليه الصلاة والسلام الإسلام لأحد سائليه، فقال له : «قل آمنت بالله ثم استقم» ويسره لآخر إذ قال له (وقد كان يرتكب الكبائر) : هل تعاهدني على ترك الكذب؟» فكان كلما هَم بمعصية، تذكر العهد فتراجع عنها..

سيصلح المسلمون بفضل من الله أنفسهم، وسيكونون قدوة صالحة، ومنارة عالية لغيرهم. وسيجيء نصر الله والفتح مرة أخرى، ويدخل الناس في دين الله أفواجاً. وقد تنبأ كثيرون من كبار المفكرين. بهذا الذي أقوله، ومنهم بعض الأجانب، مثل المفكر والكاتب الإنجليزي الكبير «شو» الذي قال : «إن أوروبا قد لا يمضي عليها قرنان حتى تكون قد اتخذت الإسلام ديناً»(١). والقرن والقرنان ليسا بالزمن الطويل في عمر التاريخ.

---

(١) الكاتب الإسلامي الكبير أنور الجندي، في كتابه «محمد فريد وجدي» رائد التوفيق بين العلم والدين (١٩٧٣ ص١١٦) - وانظر - أيضاً - «يوميات ألماني مسلم» (مراد ويلفريد هوفمان - ترجمة : د. عباس رشدي العماري - مركز الأهرام للترجمة والنشر - ص١٩٣،١٩٢ بعنوان : «مقابلة محمد أسد».

متعدد المواهب . متعدد الاهتمامات ..
ويدعو إلى الخير .. ويبدأ بنفسه

(١٦)

كان وجدى عالماً موسوعياً، بأوسع وأعمق ما تعنيه هذه العبارة. ولا أظنه - حتى فى حالات النقل عن الآخرين والإخصائيين - (كما فى دائرة المعارف مثلاً) - إلا معبراً عن نبضات قلب، وطموحات نفس. وما تحمّل ما تحمّل، وما جاهد ما جاهد إلا من أجل «الإنسان». وما دعا إلى ما دعا إليه إلا وبدأ بنفسه، فكان نغم «المثل الحى» ونعم الأسوة والقدوة. كان يؤمن إيماناً راسخاً بالطب الطبيعي والعلاج الطبيعي. ومن مؤلفاته - فى ذلك «دستور التغذية»(١). و«معالجة الأمراض بالتنفس»(٢). وفى أكثر من «مادة» من مواد «دائرة المعارف» إلا وعرّج على ذات الموضوع «الطب الطبيعي ..» - كتب عن ذلك فى مادة «طب» وفى مادة «دواء» وفى مادة «الرياح البطنية»، وعند الكلام عن الأمراض المختلفة وعلاجها «كالنوراستانيا»(٣). مثلاً وهو يتكلم عن ذلك بحماس المؤمن والداعية المخلص(٤).

وأعود إلى دائرة المعارف ومادة (طب) وأقول : إنه - بعد أن كتب عن تاريخ الطب ص٦٥٩ وما بعدها - المجلد الخامس، قال ص٦٦٦) : *للطب اليوم مذهبان : أحدهما يرى أن الجسم يحتاج أحياناً إلى العلاج بالمواد المختلفة مع اتخاذ التدابير الصحية ويرى الآخر أن العلاج (على هذا النحو) قد يفيد العضو المريض فيحوله من حال إلى حال. ولكنه فى الوقت ذاته - يوجد مرضا على عضو آخر قد يكون فيه هلاك الشخص. والطب عند هؤلاء يجب أن يقتصر على استخدام قوى الطبيعة : من هواء طلق وغذاء جيد صحى خال من اللحم والمهيجات، وعمل جسدى معتدل واستحمام بالماء الفاتر أو البارد، وغير ذلك من التدابير التى تعين الأعضاء المريضة على مكافحة المرض الذى حل بها .. إن الذى يشفى المريض هو القوة الحيوية الموجودة فى جسمه، تلك القوة التى تظهر للحسّ بفعلها على الجراح* .. وبعد أن نقل عن أقطاب الطب الطبيعي قال (ص٦٧٣) .. *فالطب كل الطب أن يعتدل الإنسان فى غذائه وأن يكون نباتياً،*

---

(١) الرقم والرمز ١٠٢٣ طب ١٩٢١م ١٠٤ صفحة نقلاً عن قوائم عندى بمؤلفاته بدار الكتب العامة بباب الخلق فى١٢/٨/١٩٦٥م.

(٢) الرقم والرمز ٣٢٠٨ ل - ٥٢ صفحة (نفس القائمة السابقة).

(٣) «النوراستانيا» هى ضعف القوة الحيوية للمجموع العصبى ضعفاً يترتب عليه ضعف وظائف جميع أعضاء الجسم (نقلاً عن ص٣٨٢ من المجلد العاشر من دائرة المعارف).

(٤) كان وجدى رحمه الله نباتياً. وقد أخذ نفسه بذلك منذ عام ١٩١٤ (الجندى - نفسه ص٨٣). وكان مشاء، وربما كان يمارس رياضات - أخرى مما يستطيع الإنسان أداءها داخل غرفته. ولكاتب هذه السطور تجارب فى التغذية والرياضة البدنية والعلاج الطبيعي (صفحات من اليوميات للمؤلف ١٩٩١ ص ١٢٧ - ١٢٩).

معتمدا فى تقويم جسمه على النباتات والفواكه الناضجة. فمن أصابه مرض فعليه أن يعمد إلى الطرق التى بسطناها فى هذا الكتاب أمام كل مرض. ولا يجوز أن يعتمد على شىء منها حتى يتحقق من المرض الذى به ولا سبيل إلى ذلك التحقق إلا بعرض نفسه على الأطباء المشخصين مراراً..

وفى مادة «الدواء» (مجلد٤ ص٩٤ وما بعدها) سار على نفس النهج، وكان مما قال : قال طبيب العرب الحارث بن كلدة «دافع الدواء ما وجدت مدفعا ولا تُشْرِبه إلا من ضرورة، فإنه لا يصلح شيئاً إلا أفسد». وبعد أن نقل الكثير عن العلماء والإخصائيين تأييداً لهذا المذهب، قال ص١٠١ : واجب الأطباء فى نظرى تنحصر فى تشخيص الأمراض، وتدبير غذاء المرضى وتعويدهم على الثقة بالقوى الطبيعية وتمرينهم على أداء الرياضات الواجبة .. وفى الختام قال : هذا رأينا الخاص، ولكل إنسان أن يعمل بما يراه أحفظ لصحته ..

وتحت عنوان «الرياح البطنية» (ص٤٠١ وما بعدها - مجلد٤) قال : هى رياح تتكون فى المعدة أو فى الأمعاء، سببها التهاب معدى مزمن، أو التهاب معوى كذلك، أو بسبب ضعف فى أعصاب المعدة، كما يحدث كثيراً لأصحاب المزاج العصبى، وقد تتكون الرياح من تعاطى بعض الأطعمة كاللوبيا والفول والكرنب والبصل وغير ذلك. ثم تكلم عن العلاج بالحمية فى حالة الرياح الناشئة من الالتهاب.. واستطرد إلى العلاج بالنباتات (كالشيح ومغلى الينسون والنعناع ..) فى حالات بيّنها .. وبعد أن تكلم عن الانتفاخ المعدى بالرياح .. وتراكم الغازات فى الأمعاء إلى آخره. قال : وسبب هذه الأمراض الحياة الجلوسية، وعدم إعطاء الجسم حقه من الحركة الضرورية، والافراط فى شرب القهوة وأكل اللحم والمضغ الناقص .. وتابع الكاتب الفاضل، والعالم الجليل - عليه رحمة الله ورضوانه - تفاصيل كثيرة تتصل بهذه الغازات وأسبابها، وعلاجها عن طريق الأعشاب والطب الطبيعى.

وجدى الإنسان

(١٧)

كان المرحوم وجدى نباتياً، وكان روحانياً، وكان صوفيا (بالمعنى الحقيقى والكريم للكلمة) كما كان يحمل من الحب والاهتمام بكل الناس مالا يحمله إلا أب نحو أولاده وذويه. وكان جم التواضع، شديد التمسك بمبادئه، عظيم الاحترام لآراء الآخرين. وقد عايشه العقاد زمناً ليس بالقصير. زامله فى العمل الصحفى، وبدأ معه وهو دون العشرين، واستمر معه كل الفترة التى عاشتها جريدة الدستور (١٩٠٧ - ١٩١٠م). كان لصيقاً به فى حياته اليومية، وأحياناً فى جولاته الرياضية. يقول العقاد عنه[١]. بعد أن نقل نماذج من شعره «من صراحة خلقه، وإيمانه

---

(١) رجال عرفتهم ص ١٦٢ وما بعدها (كتاب الهلال - أكتوبر ١٩٦٣).

باستقلال الرأى عنده وعند غيره، أنه كان يستمع إلى رأيى فى شعره، فلا يغضبه ولا يهمه أن يكون له حظ من الشعر أكبر من حظه. وقد قلت له مرة : حسبك من الشعر ما يقنع قلب المتصوف ولسانه. فقال : والله إنه لخير كثير، ومن لنا ببعض هذا النصيب؟ وبعد أن روى العقاد ما روى العالم اللغوى عبد القادر المغربى (وهو أحد تلاميذ موقظ الشرق جمال الدين الأفغانى) - متخيلاً صورة لجمال الدين وهو متزوج وله أولاد وبيت يأوى إليه[1]. (وهى صورة مغرقة فى الخيال) كصورة الشيخ[2]. عليش وهو يسعى إلى الأزبكية ليجلس فى إحدى حاناتها، ويستدعى (الجرسون) ليأمره بسؤال من حوله عما يطلبون من مشارب الحانات (وهى الأخرى أكثر إغراقاً فى الخيال) - يضيف العقاد : إننى قد رأيت بعينى فى الواقع ما هو أغرب من هاتين الصورتين وهو منظر محمد فريد وجدى يتمشى فى قلب الأزبكية بين المتاجر والحانات، وهى لا تدرى من هذا الذى يغيب فى أطوائها بين هذا الزحام، ولعله هو - أيضاً - لا يدرى أن هذه هى الأزبكية إلا كما يدرى الطيف فى الصور المتحركة أين يضعه المخرجون بين مشاهد الأفلام.

لقد كان السير على الأقدام من رياضات الرجل قبل الأصيل كل نهار، وكان يمضى فى رياضته إلى حيث تسوقه قدماه تارة هنا وتارة هناك .. وكأنه - لانطوائه على نفسه يتمشى فى عالم السريرة، ولا يتمشى فى عالم العيان !.

أقول : إنه ببدنه يتحرك بين الناس لأنه يؤمن بأن لبدنه عليه حقاً كما جاء فى الأدب النبوى، لكنه بروحه، بسريرته، بذهنه وعقله وقلبه، يسيح فى عالمه هو عالم الإنسان، وهموم الإنسان! يعيش مع العلوم الإنسانية والكونية التى يعمل على أن يضيف إليها كل يوم جديدا بما ينشره فى الكتب والصحف والمجلات. وقد ترك فى هذا المجال وفى غيره الكثير والكثير مما لا تنهض به إلا العصبة من أولى العزم والقوة الذين وهبوا أنفسهم ونذروها لله. إنها فترات رياضية هى امتداد للفترات التى يجلس فيها على مكتبه. إنها فترات التأمل والخيال، وهل تأتى الحقائق إلا بعد التأمل والخيال! وأعود إلى العقاد الذى قال فى ذات المعنى : «كنت أراه أحياناً فى طريقى ولا أعرف من هو بين غمار الناس، على علمى ببعض آثاره، وسماعى لبعض أخباره، ومنها فى قفشات الأدباء (أولاد البلد) أنه يعيش فيما وراء المادة فى عطفه من عطفات عالم الروح!.

ويقول العقاد : قرأت إعلانه عن محرر بالصحيفة (الدستور) فكتبت إليه أرشح نفسى للعمل فى الصحافة لأول مرة، وجاءنى الرد بسرعة، وفيه تحديد زمان ومكان اللقاء، وأعطانى صحيفة فيها مقال لكاتب عن باريس. رد العقاد الصحيفة إليه قائلاً : إنى لم أذهب إلى

---

(١) كان جمال الدين الأفغانى قد طلق هذه الحياة (الخاصة) ليعيش بكل طاقاته للحياة العامة.

(٢) وهو مضرب المثل فى التقوى والورع، والبعد عن كل ما يشين.

باريس، ولكن موضع العجب أن الكاتب لم يطرق منها غير الحى اللاتينى، ولم يعرف فى الحى غير معارض الخلاعة والمجون، فهل هذه هى باريس؟ فضحك صاحبنا ضحكة تنم عن كل ما فى طوية نفسه من براءة طيبة كبراءة الأطفال! وقال : هل لك فى رحلة قصيرة نقضى بها رياضة اليوم؟ وسرت معه حيث سار، فلاح لى أنه كأنما يسير معى ولا يوجهنى إلى مكان مقصود بعينه أو كأنى كنت أوجهه كما كان يوجهنى على السواء!.

أقول : إلى هذا الحد بلغ تواضع وجدى، الفيلسوف والإمام والعلامة الذى أخرج لقراء العربية «دائرة المعارف» وغيرها وغيرها مما يجعله الفريد فى غزارة الإنتاج الشامل والرصين بين سائر معاصريه وأحد فرسان غزارة الإنتاج العلمى على مر العصور!.

ويقول العقاد (نفسه ص١٦٧ وما بعدها) لم ألق «محمد فريد وجدى» بعد تعطيل الدستور غير مرات معدودات. وكنت قد غادرت القاهرة إلى أسوان، ثم عدت إلى القاهرة للعلاج من وعكة قطعتنى عن العمل بضعة أشهر .. وقد قصدت إليه فى مسكنه إثر رياضة فى الخلاء، وفى يدى كتاب من كتب الفلسفة الاجتماعية فقال لى : (وقد نظر فى الكتاب، ولح على وجهى أعراض السقم) : وفى مثل هذا الكتاب تقرأ وأنت ترتاض للاستشفاء؟ وأذكر أنى فاتحته باعتقادى قصر العمر وقلة الجدوى من الاستشفاء. فابتسم ابتسامته الأبوية، وفتح الصفحة الأولى من الكتاب، وهو يقول لى : اكتب هنا .. ثم أملى على كلاماً فحواه أننى سأعود إلى هذه الأسطر وأنا شيخ معمر، ولكنى أعرف أننى كنت على خطأ كبير حين قدرت لنفسى نهاية العمر القصير .. ويختم العقاد كلمته فى «وجدى» بقوله «يرحم الله ذلك القلب الطهور، وذلك الروح الكريم، وذلك الخلق الغريب. إن كان اليوم لا يذكر حق ذكراه، فما هو بالخمول، ولا هو بالقصور عن حق الخلود ولكنه يعيش فى عزلة من دنيا التاريخ، كما عاش أيامه فى عزلة من دنيا الحياة».

أقول : إنها الأبوة الحانية من وجدى على زميله الناشىء (عباس العقاد) إنها الأبوة الحانية على كل الناس، وإنه حين أمر العقاد «السقيم» بأن يكتب ما كتب من أنه «سيعود إلى هذه الأسطر وهو شيخ معمر» لم يكن دعياً ولا متنبئاً إنما كان أدنى إلى الطبيب النفسى. إن العلاقة بين الجسم والنفس علاقة وثيقة وصحة النفس تساعد على صحة البدن، والعكس صحيح. وقديماً قيل : «إن العقل السليم فى الجسم السليم» وأقول - أيضاً - إن لى رجاء أتجه به إلى الله وإلى القراء هذا الرجاء هو ألا يعيش وجدى مستقبلاً «فى عزلة من دنيا التاريخ». وذلك ليس من أجل وجدى الذى ترك الفانية إلى الباقية، وإنما من أجل الأجيال الآتية التى من حقها على كل من عرف وجدى الفريد بتراثه، والفريد بدينه وأخلاقه، والفريد بمبادئه وقيمه - أن يُكتب ويُنشر عنه، وباستمرار وعلى أوسع نطاق. إنى أعلم أنى أنا الآخر انعزالى، وقد عشت معظم حياتى أكتب - فى الأصل- لنفسى. وإنى أتجه إلى الله سائلا إياه أن يوفقنى إلى أن أفعل شيئاً فى هذا الذى أدعو إليه. وسيبعث الله من يحملون الراية حتى يبقى وجدى، وتراث وجدى منشورين وعلى خير وجه بين الناس.

الفصل الرابع

حسن استعمال الحرية
شاهد على الناس

(١٨)

يقول تعالى فى سورة البقرة (الآية : ١٤٣) : **« وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيدا ... إلى قوله تعالى إن الله بالناس لرءوف رحيم** . وأنقل هنا (بتصرف) شيئاً مما جاء "فى تفسير المنار" عن هذه الآية: **« وكذلك جعلناكم أمة وسطا »** قالوا : إن الوسط هو العدل والخيار، وذلك لأن الزيادة على المطلوب إفراط، والنقص عنه تفريط وتقصير. والإفراط والتفريط ميل عن الجادة والصراط المستقيم ، وماكان كذلك فهو مذموم. فالخيار هو الوسط بين طرفي الأمر ، ومن كان متوسطا بين شيئين فإنه يرى أحدهما من جانب، وثانيهما من الجانب الآخر بخلاف ماإذا كان فى أحد الطرفين، فلا يعرف حقيقة حال الطرف الآخر ولا حال الوسط أيضاً. فالمسلمون خيار وعدول لأنهم وسط، ليسوا من أرباب الغلو فى الدين المفْرطين ، ولا من أرباب التعطيل والتفريط، إنهم كذلك فى العقائد والأخلاق والأعمال. ذلك أن الناس كانوا قبل الإسلام، إمّا مَاديّون جسديون كاليهود والمشركين، وإمّا روحانيون هجروا الدنيا واللذات الجسدية كالنصارى والصابئين وطوائف من وثنيّ الهند أصحاب الرياضات . وأما الأمة الإسلامية فقد جمع الله لها الحقين : حق الروح وحق الجسد. وإن شئت قلت: إنه أعطاها جميع الحقوق الإنسانية، فالإنسان جسم وروح، فكأنه قال: أعطيناكم الحقين، وبلغناكم الكمالين، **« لتكونوا شهداء بالحق على الناس »** "الجسمانيين" بما فرطوا وقصروا فى حق الدين، والروحانيين الذين أفرطوا وكانوا من الغالين. إن الأولين بهيميون دهريون (١) وإن الآخرين جناة على أرواحهم بجنايتهم على أجسادهم. إن الأولين قد أحلوا ما حرم الله، وإن الآخرين قد حرموا ما أحل الله. والمسلمون - بوسطيتهم واعتدالهم - شهداء على هؤلاء وهؤلاء. إنهم بمعاييرهم وموازينهم يقررون ماهو حق وماهو باطل ويعطون كل ذى حق حقه. حق الرب، وحق النفس، وحقوق سائر الناس **« ويكون الرسول عليكم شهيدا »** إن الرسول عليه الصلاة والسلام هو المثال الأكمل لمرتبة الوسط، وإنه بعقيدته وسنته وسيرته وشريعته هو الأسوة والقدوة الحسنة، فمن اتبعه فقد اهتدى، وهو شاهد له، ومن ابتدع أو انحرف، فقد ضل، وهو شاهد عليه. إن المولى جل وعزّ قد جعلنا فى هذه (الآية ١٤٣ - البقرة) (أمة وسطاً) وقال فينا فى (الآية ١١٠ - آل عمران) **« كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر**

---

(١) الذين يقولون "إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر، ومالهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون" (٢٤ - الجاثية)

وتؤمنون بالله » وقد استشهد الزمخشرى فى تفسير (الآية ١٤٣) بقول الشاعر :

كانت هى الوسط المحمىّ فاكتنفت ∴ بها الحوادث حتى أصبحت طرفا

ياويلنا ! لقد صرنا إلى ما صرنا إليه من سوء الحال لتعلقنا بأذيال أعداء الإسلام ! لكن الصبح المُسفر المضىء آت بفضل الله، وعما قريب.

بعد هذا البيان لمعنى "الوسطية" كما جاء فى تفسير المنار، (١) أثبت فيما يلى الآيات التالية، ومنها (الآيتان ١٤٣ - البقرة، و١١٠ - آل عمران)، ولى عليها جميعها تعليق.

١ - « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا »

٢ - « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط » (١٨ - آل عمران)

٣ - « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله، ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين، إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا » (١٣٥ - النساء).

٤ - « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط، ولايجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » (٨ - المائدة)

٥ - « يا أيها الذين آمنو من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، يجاهدون فى سبيل الله ولايخافون لومة لائم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » (٥٤ - المائدة) .

٦ - « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب، إن الله قوى عزيز » (٢٥ - الحديد)

٧ - « يؤتى الحكمة من يشاء، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب » (٢٦٩ - البقرة).

أقول : بعنوان "أمة وسط" ألقيت محاضرة بأحد نوادى الخرطوم فى العام الجامعى ٧٦ - ١٩٧٧ -امتد إلقاؤها إلى أكثر من ساعتين، وأذاعت الإذاعة السودانية هذه المحاضرة على بضعة أيام، ومما قلته فيها : إنه من "الوسطية" أن اختار الله ورسوله للأمة الإسلامية "أن يكون أمرها شورى بينها". أى أن يكون الحكم فيها لله، و "السلطة" "Pouvoir" للأمة . و"الشورى" وسط بين "الاستبدادية والفوضوية" .. إلى آخره. وقد سبق ذكر الآية (١١٠ - آل عمران) وفيها أن الأمة الاسلامية هى خير أمة أخرجت للناس مادامت تتمسك بهذه الثلاثة : الايمان بالله الواحد بلاشريك ، والامر بالمعروف والنهى عن المنكر. وإذا كانت حال الأمة اليوم على مانرى من التدهور فذلك لأنها تخلت عن منهج الله، منهج المزاوجة بين الروح والجسد، والدنيا والآخرة. لكنها عائدة بإذن الله، وفى المستقبل غير البعيد - إلى منهج الله، إلى كتاب الله وسنة رسول

---

(١) بتصرف، وبصياغتى أحيانا

الله. ويومئذ سيظهرون، وسيظهر الإسلام على الدين كله. وعد الله، ولن يخلف الله وعده . ويومئذ سيكون المسلمون شهداء على الناس ، سيكونون كذلك حين تسودهم قيُمهم، وتنضبط - على منهج الله - موازينهم. وينتشر العدل بينهم، وترتفع راياتهم ومبادؤهم، وتمتد منهم إلى غيرهم. يومئذ سيكون القول الفصل هو قولهم. وسيكون تقرير الحق والباطل ، والخير والشر، هو تقريرهم. هذا هو معنى قوامتهم وشهادتهم على الناس. أما من يشهد عليهم فهو رسولهم القائل «تركت فيكم شيئين ، لن تضلوا بعدهما ، كتاب الله وسنتى ، ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض» (للحاكم فى مستدركه).

وعن الآية ١٨ من آل عمران (وقد سبق ذكرها) أكتفى بالإشارة إلى مافيها من تكريم "لأولى العلم". فالله يشهد فى الآية أنه الإله الواحد، وأنه قائم بالعدل (العدل الإلهى) الذى لايضل من استهدى به، وبهذا وذاك شهدت الملائكة، وشهد أولو العلم. ومرةً أخرى: ياله من تكريم للعلم ، وأهل العلم!

عن الآيتين ١٣٥ النساء و٨ المائدة :

عن هاتين الآيتين الكريمتين أشير إلى أن العدل فى الإسلام "عدل مطلق" ونحن مأمورون بالعدل، وعلى النفس والأقربين وأقرب الأقربين ومأمورون به مع أعدى الأعداء ومع المخالفين لنا فى الدين "..وَ أُمِرْتُ لأعدل بينكم .." (١٥ - الشورى). (وانظر كتابى: «الإسلام وحقوق الإنسان - دراسةً مقارنة» - فصل بعنوان : العدل - بنود - ٢٩٥ - ٢٩٨).

وعن الآية ٥٤ - المائدة - أشير وأشيد بهؤلاء الذين يحبهم الله ويحبون الله، هؤلاء المتواضعون الموطأ والأكناف للمؤمنين، الأعزة على الكافرين والمتكبرين، هؤلاء المجاهدون فى الله، وفى الحق، ولايخشون إلا الله. هذه منزلة عالية ، هذا فضل من الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وعن الآية ٢٦٩ - البقرة - أقول : إن الحكمة هى العلم النافع الموصل لخير الدنيا والآخرة ومن يؤتاها فقد أوتى خيرا وخيرا كثيرا . وما يذكر هذا ويتنبه إليه وينتفع به، وينفع به الآخرين إلا أولو العقول السليمة، والنيات الطيبة، والهمم العالية.. أقول : فى التوضيح الموجز للآيات السابق ذكرها ، والتى يتضمن القرآن الكريم الكثير من أمثالها، كما تحتوى السنة الشريفة الكثير والكثير مما جاء فى معناها . فى هذه الآيات الكريمة بيان لقيم إسلامية سامية وجامعة : "والوسطية" وسموها وشمولها، وأولو العلم ومنزلتهم عند ربهم، وهؤلاء الشهداء، القوامون بالعدل والحق ولو على انفسهم، ومع أعدى أعدائهم، ومع من هم من دين غير دينهم، وهؤلاء الذين يجاهدون فى سبيل الله، ويتمسكون بالحق ، كل الحق ، ولايخشون فى ذلك إلا الله وهؤلاء الذين استجابوا لله الذى أرسل رسله، وأنزل الكتاب والميزان ليقوم الناس بالعدل (والعدل أساس الملك، ودعامة الاستقرار والأمن والأمان)، هؤلاء الذين أدوا الأمانة وحملوا الرسالة، هؤلاء العلماء الحكماء ورثة الأنبياء. هؤلاء هم الذين قال فيهم سيدنا خاتم النبيين والمرسلين :"لاتزال طائفة

من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة" (١) (انظر أحاديث كثيرة بذات المعنى فى الفتح الكبير، فى ضم الزيادة إلى الجامع الصغير - وهما للجلال السيوطى - ترتيب النبهانى - الجزء الثالث ص ٣٢١ طبع دار الكتب العربية الكبرى - لأصحابها مصطفى البابى الحلبى وأخويه بمصر).

وأقول - فى ختام هذا البند : لقد كان محمد فريد وجدى - عليه رحمة الله ورضوانه - أحد علماء الصف الأول من هؤلاء الذين قاتلوا و يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، لقد كان كذلك، وسيبقى كذلك، بسيرته الطاهرة، وتراثه العظيم.

وما من فقرة فى هذه الدراسة المتواضعة، إلا وتؤكد هذا الذى أقول. ويجزى الله بالخير، فى الدنيا والآخرة، كل هؤلاء من العلماء العاملين الذين ساروا ويسيرون على نفس الجادة.

وجدى - كما عرفه العقاد

(١٩)

عمل الكاتب الكبير المرحوم عباس محمود العقاد - أول ما عمل فى الصحافة - محررا بجريدة "الدستور" لصاحبها ومديرها المرحوم/ محمد فريد وجدى. وعمل العقاد فيها من أول ظهورها إلى توقفها (١٩٠٧ - ١٩١٠) - وهذا هيأ له معرفة وجدى عن قرب ، وفى مختلف المواقف ومواجهة الأحداث، وتعامله مع الناس. وقد كتب العقاد عن وجدى أو أشار إليه فى عدد من كتبه وأخصها كتابه "رجال عرفتهم" (كتاب الهلال - العدد ١٥١ - أكتوبر ١٩٦٣ ص ١٥٧ ومابعدها) وعن هذا الكتاب أنقل مايلى بتصرف. بدأ وجدى حياته الفكرية نباتيا، وأخذ نفسه بسمت الأولين من عباد الله الصالحين، فتورع عن كل بدعة ينكرها الدين، وجهر باستنكاره لهذه البدع حين صمت الصياحون من الناطقين. من ذلك موقفه من حادث حدث بين الخديوى (عباس) والسيد/ محمد توفيق البكرى (شيخ مشايخ الطرق الصوفية). وكان ذلك يوم الاحتفال بتوديع المحمل. ومنع البكرى أصحاب الطرق من الخروج لموكب المحمل تحية للأمير فى ميدان الاحتفال لأنه كان محنقا عليه. وخلا الميدان إلا من الموظفين المدعوين. وغضب الأمير وانتهر السيد/ البكرى ، وقال له بصوت مسموع من الحاضرين : أنت قليل الأدب. وغضب البكرى وانصرف من الاحتفال وهو يقول للأمير بصوت مسموع : لست أنا قليل الأدب. إننى وزير مثلك، وآبائى وأجدادى لهم الفضل على آبائك وأجدادك. ولم تأخذ صحيفة واحدة بناصر البكرى إلا "الدستور"، وذلك رغم أن البكرى كان غير مقبول عند وجدى لاختلافهما فى المسلك والسيرة. والشىء الوحيد وراء هذا الموقف من وجدى هو أن مظاهر الطرق الصوفية بدعة لا يستحسنها.

---

(١) لأحمد فى مسنده ، ومسلم عن جابر.

واطلع البكرى صباح اليوم التالى على "الدستور" (الصحيفة الوحيدة التى أخذت بناصره)، وأرسل إلى صاحبها مبلغا من المال كانت فى أشد الحاجة إليه، ولم يقبل منه وجدى إلا قيمة الاشتراك لمدة عام وردّ الباقى إليه قبل أن ينتصف النهار.

أقول : إن الصحف - حتى الإسلامية منها، والتى يفترض فيها أن تكون أول من يستنكر المنكر - لم تنتصر للبكرى ، نفاقا للأمير غالبا. أما الأمير - وكمعظم الحكام فى العالم المتخلف- فإنه، وإنهم - يحرصون كل الحرص على هتافات الهتافين، وصياح الصياحين، ولو كانت زورا ، وبخلاف مايبطنون. والوحيد (فى هذه السوق) والذى تربح لوجه الله، هو وجدى. ماأحوجنا - وفى كل الظروف، إلى إدانة البدعة ومواكب النفاق! وأعود إلى العقاد، ونفس المرجع، وأبدأ من حيث انتهيت. قال العقاد : لقد كانت أزمة الصحيفة أثرا من آثار "المبدأ" الذى لا ينحرف عنه الرجل قيد شعره ! وهو الجهر بالرأى ولو خالف القوة والكثرةَ وأحبَّ الناس إليه! لقد كان من رأيه عند تأليف الحزب الوطنى أن يكون تبليغ تأليفه والاحتجاج على الاحتلال عاما ، غير مقصور على الدولة البريطانية. فلم يقبل مصطفى كامل مقترحه. ولم يسكت فريد وجدى عن تأييد رأيه (بالوسائل المختلفة، ومنها النشر فى الدستور). وترتب على هذا الموقف انصراف قراء اللواء عن قراءة الدستور ولم يكن للدستور قراء من الشيع السياسية الأخرى، فكسدت الصحيفة. ولم يقبل صاحبها أن يعوض الخسارة بالمعونة المعروضة عليه من الجهات السياسية التى لايوافقها. ومن المعونات التى عرضت عليه فى أحرج أيام الأزمة ، معونة كبيرة من جماعة "تركيا الفتاة" تقدمها للدستور مشاهرة ليكون لسانا عربيا لحركتهم الدستورية. وكان لهم شرط واحد، وهو رفع عبارة "لسان حال الجامعة الإسلامية" (١) من صدر الصحيفة ! فرفض الرجل هذه المعونة، ورفض أن يجعل صحيفته لسانا للجماعة إلا بشروطه هو، حتى لو وافق الحزب (جماعة تركيا الفتاة) على بقائها لسانا للجامعة الإسلامية. وفى الوقت الذى كانت المعونات تعرض عليه من مختلف الجهات، ومنها الحاشية الخديوية - كان يتحامل على نفسه، وعلى القليل من موارد مؤلفاته، لينفق عليها، بعد تصغير صفحاتها واختصار أعدادها. فلما استنفد كل ماقدر عليه أعلن تعطيلها، وهو مدين لتاجر الورق وموظفى التحرير والإدارة بمبلغ ليس باليسير. ولم يهدأ باله حتى أدّى كل ماعليه من ديون من مؤلفاته التى باعها (للتاجر) بثمن يقل أحيانا عن عشر ثمنها، وحضر بنفسه كل هذه العمليات ! يقول العقاد : هذا هو الرجل الفريد فى نزاهة نفسه، واستقامة خلقه، والحفاظ على مبدئه ورأيه. وهو كذلك - وأكثر من ذلك انفراداً بين كتاب عصره بجهوده فى مؤلفاته. فلا نعرف أحداً منهم توفر وحده على تأليف دائرة معارف كاملة.. ولا على الاستقلال وحده بإصدار صحيفة يومية.. وكان استقلاله برأيه لا يأبى عليه أن يعرف لغيره حقهم فى الاستقلال بما يرون.

---

(١) كانت "الدستور" تحمل أول أمرها شعار "جريدة يومية سياسية تجارية" ثم أصبحت بعد ١٩ إبريل ١٩٠٩ "لسان حال المقيمين على المبادىء الأصيلة للحزب الوطنى على إثر خلافه مع لجنة الحزب ، ثم أصبح شعارها بعد ١٦ مايو ١٩٠٩ "جريدة يومية سياسية إسلامية"
(أنور الجندى، نفسه ص ٣٩) .

ويقول العقاد : لا أذكر أنني لمحت منه – عند أشد المخالفة – نظرة غير نظرته حيث تقترب الأفكار والآراء ! ومن صراحة خلقه وإيمانه باستقلال الرأى عنده وعند غيره، أنه كان يستمع إلى رأيى فى شعره، فلا يغضبه ولا يهمه أن يكون له حظ من الشعر أكبر من حَظّه ! وأختم هذه الكلمة، كلمة العقاد عن وجدى كما عرفه – بما بدأها به، إذ افتتحها بقوله : "هو فريد عصره غير مدافع . وإذا كانت هذه عبارة مألوفة.. حتى أصبحت حروفا بغير معنى، إلا أننا نقولها اليوم عن "محمد فريد وجدى" لنعيد إليها معناها الذى يصدق على الصفة حرفا حرفا، ولا ينحرف عنها كثيرا ولا قليلا حتى فى لغة المجاز. وأوجز ما يقال عنه "أنه لم يخلق فى عصره من يتقارب المثل الأعلى والواقع المشهود فى سيرته كما يتقاربان فى سيرة هذا الرجل الفريد!"

أقول : لكأنّ العقاد (وهو من هو) لم يشأ أن يدع قولا لقائل فى هذا الرجل العظيم (والفريد فى عظمته بين أهل عصره)! ومع ذلك فإنى أضيف – على سبيل التأكيد مايسمى بمفتاح هذه الشخصية العظيمة، والفريدة فى عظمتها بين سائر معاصريها : إن الرجل كان "مسلما حقا وصدقاً" كان مجاهداً فى سبيل الله. وفى هؤلاء المجاهدين يقول تعالى : «**يجاهدون فى سبيل الله، ولا يخافون لومة لائم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء**» (٥٤ – المائدة). لقد أراد الرجل حرث الآخرة. وفى ذلك يقول – جل وعز – «**من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها، وماله فى الآخرة من نصيب**» (٢٠ – الشورى).

الدستور - عرض وصفى

(٣٠)

فى ذات الأوراق السابقة الذكر والمؤرخة ٢٢/ ٨/ ١٩٦٥ : المجلد الأول من الدستور (رقم ٤٦٥ – دوريات) – والموجود بدار الكتب بباب الخلق يبدأ بالعدد ٤٠ الصادر فى "مصر فى يوم الأربعاء ٢٧ ذى القعدة – ١٣٢٥ الموافق ١ يناير ١٩٠٨ – كيهك ١٦٢٤. وفى أعلى الصفحة الأولى : الدستور (جريدة يومية سياسية تجارية) [٢] – وعلى جانبى اسم الجريدة بيانات عن "الاشتراكات والإعلانات والمكاتبات... إلى آخره" [٣]. وفى الصفحة الأولى : الفهرست. وفى نفس الصفحة مقال بعنوان "مجد الأمة فى يدها" (بتوقيع محمد كامل السويفى). وفى منتصف العمود الرابع – مقال : "الريف – عادات وأخلاق" (بتوقيع – الهيهاوى) وفى الصفحة الثانية : حوادث وأخبار : كتاب اللورد كرومر مقال من عمودين ونصف بدون توقيع [٤] – الحزب

---

(١) المجلدات السابقة كانت بدار الوثائق بالقلعة .

(٢) صار شعارها – فيما بعد – كالمبين بالبند السابق.

(٣) ثمن النسخة نصف قرش صاغ.

(٤) وهذا يعنى أن الكاتب هو صاحب الجريدة ومديرها .

الوطنى– استفهام عن تناقض فى التصريح، وتحت هذا العنوان خطاب من أحمد رمضان زيان بالاسكندرية، يقول فيه لصاحب الدستور : إنه نشر فى العدد ٣٨ منه أنه يعترف بزعامة مصطفى كامل، وفى نفس العدد يعترض على شكر الإنجليز بسبب العفو عن مسجونى دنشواى. وهو (أى الشكر) الأمر الذى اقترحته وروجت له "اللواء" – ويمثل هذا المعنى كتاب آخر بتوقيع مصرى . وقد ردّ الدستور على هذا بقوله : "ولنعلم نحن المصريين أن إصدار الإنجليز العفو يقصد منه فائدتهم الشخصية، لا إرضاء المصريين. ثم ليعلم المصريون أن الفضل فى هذا العفو يرجع إلى زعيم الحزب الوطنى بحمله الناس على ختم العرائض لاسترحام الجناب العالى فى العفو عنهم..".

هذا رأيى صراحة.. وهذا لايمنع أن يكون الدستور حرّ الفكر مستقل الرأى ، وسطا بين جميع الأحزاب التى نعتبرها فروعاً للحزب الوطنى، عاملا على التوفيق بينها، ومانعا من تصادمها وتشاكسها. وفى العمود السادس والأخير : سؤال آخر لمدير الدستور : هل أنت عضو عامل بالحزب الوطنى أم لا ؟ "خليل حشمت بالاسكندرية" (الدستور : أنا عضو عامل فى الحزب الوطنى، وقد أيدته بكتاباتى أقوى تأييد، ولم أزل" وفى ذات العمود أخبار. وبالصفحة الثالثة – العمود الأول – تابع الأخبار – العمود الثانى – سعادة الأمة فى قبضة المعلم.. خبر من المكاتب بطنطا – العمود الثالث إلى الحزب الوطنى – شعر : محمود رمزى نظيم بمصر – ثم أخبار . العمود الرابع – تلغرافات خصوصية : المنصورة : فى الساعة ٨ والدقيقة ٤٠ ضرب وطنى أجنبى بمدبة داخل أجزاخانة حلمى – والمصاب فارق الحياة. والسبب مجهول – وسنوافيكم بالتفاصيل (الدستور) – هذا نص التلغراف الوارد، وقد رفع ناقله الفاعل والمفعول معا، فلم نعرف الضارب من المضروب . ثم تلغرافات عمومية . ثم : نصف العمودين الخامس والسادس : أخبار تجارية. الصفحة الرابعة والأخيرة : منشور بها ما يلى :–

(أ) - إعلان من إدارة الجريدة – الدستور جريدة يومية سياسية قائمة على مبدأ المساهمة. بدأنا فى إصدارها يوم السبت ١٠ شوال من هذا العام (١٣٢٥ هـ) قاصدين بإصدارها خدمة الوطن والدين خدمة خالصة صادقة . أما المواضيع التى ينتظر بحثها فهى :

أولا : المطالبة بالحقوق الطبيعية يندرج تحتها : الاستقلال والحكم الذاتى ، وبيان وسائل الحصول عليه من طريق الآداب الاجتماعية السلمية.

ثانيا : تقوية العاطفة الوطنية فى النفوس وهى العاطفة التى عليها مدار الوجود السياسى للأمم.

ثالثا : العمل على ترقية الشعور العام بالحقوق والواجبات الاجتماعية، وإعداد النفوس لقبول عظات الحوادث والاستفادة منها.

رابعا : العمل على توجيه العواطف والميول الوطنية المتبددة إلى وجهة عامة مشتركة لتتكون للأمة شخصية تامة الصورة، يُعرف لها حق فيحترم، ويُعلَمُ لها وجود فيعتبر.

خامسا : تصور موقف مصر إزاء الأمم عامة، وبإزاء السلطات التى تتنازعها خاصة، وتعيين واجبات المصريين حيال ذلك.
سادسا : البحث فى الأحزاب المصرية ومراميها، ودرس عوامل كل منها والكلام عن الجرائد التى تشخصها .
سابعا : تنشيط حركة النهضة المصرية والدعوة إلى التعليم والتربية وإرفاق كل ما من شأنه إعداد المصريين للاستقلال والحرية.
ثامنا : نشر مباحث فى العلوم السياسية والاقتصادية وتركيب الأمم والحقوق والواجبات الطبيعية ونظام المطالبة بها، وكيفية حفظ الأمم لمركزها بين حركات التنازع السياسى والاقتصادى والاستعمارى الواقع عليها من الأمم الكبرى.

يقول مدير الجريدة :

هذه هى مبادىء الجريدة التى تصديتُ لنشرها، وإنى مع اعترافى بالقصور ، أحاول النهوض بها . ولكنى أحب أن يكون للأمة بجميع عناصرها وطبقاتها يد فى تكوينها. ولايتسنى ذلك على أسلوب شريف ثابت إلا باطراحى للأنانية، وإقامته على مبدأ اقتصادى بتخصيص نصف إيراد الجريدة لألفى سهم ، ثمن السهم جنيه مصرى يخول لحامله الحق فى أخذ مايخصه من ريع الجريدة السنوى تحت ضمانة إدارتنا. ومن مزايا هذا النظام ، اعتبار الجريدة لسان حال جمهور كبير من الأمة سيكون سنداً لها معنويا وماديا، وسيكون للجريدة حظ من اسمها، فالدستور يعنى جعل الأمر بيد إرادات مجتمعة لا إرادة واحدة.. إلى آخره.

(ب) - مما تتضمنه الصفحة الرابعة من الدستور، تعريف بمدرسة العلوم العالية :- المقصود منها تخريج فرقة من حملة العلوم الدينية فى المعارف العصرية والفلسفة الحديثة ليكونوا على بينة من الدفاع العصرى عن ديننا الحنيف.. ولكى يكون طلبة المدرسة مؤهلين لفهم ما يلقى عليهم فيها. اشتُرِط " على كل من يرغب الالتحاق بها إحضار شهادة تدل على أنه يدرس الكتب العالية وعلى وشك الحصول على شهادة العالمية" .
(جـ) - الحياة - مجلة شهرية فلسفية إسلامية :- يودعها مدير الدستور أبحاثه فى الدين الإسلامى وعلاقته بالمدنيه، ويضمنها الدروس التى يلقيها بمدرسة العلوم العالية، وترجمة الكتب الفلسفية الأوربية، وما يفتى به السائلين فى مسائل الدين والاجتماع مما يرد إليه من جميع أقطار المسلمين .
(د) - صفوة العرفان فى تفسير القرآن - سبق الكلام عن هذا المؤلف (فى البند ١٠ من الفصل٣).
(هـ) - الحديقة الفكرية فى إثبات الله بالبراهين الطبيعية.. فى الكتاب سرد لشبهات الملحدين والرد عليها بالحجج العلمية. وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة الهولاندية.
(و) - الإسلام فى عصر العلم - مؤلفه - وكذلك الكتب السابقة - مدير الدستور. وفيه حلول المسائل الإسلامية بأسلحة العلم.. وأبحاث مستفيضة فى الأديان والأخلاق والاجتماع فيما يتعلق بالإسلام والقرآن.- ١٤٠٠ صفحة (وثمنه ٥٥ قرشاً).

(ز) - المدنية فى الإسلام : ألفه مدير الدستور، فى تطبيق نواميس المدنية على الإسلام.. وقد ترجم إلى الهندوسية والتتارية، وإلى لغات أخرى[1].

هذا وقد بدأ الدستور فى نشر صور به منذ العدد ٣٤٣ المؤرخ ٢٥/ ١٢/ ١٩٠٨ م. ولم أر فى الدستور (اى فيما اطلعت عليه منه) أى إعلان عن محرم (كالخمر مثلا) ولم أر فيه أى تهجم أو دعوة لا تتفق مع الدين. وبوصف الدستور جريدة إسلامية فقد كان اهتمامه بالبلاد والشعوب الاسلامية، وبأخبارها وأوضاعها - واضحا ! كما أنه ومن هذه الزاوية - كان يحارب البدع والشعوذة. وعاش الدستور عمره كله، كما عاش صاحبه - من قبل الدستور ومن بعده - يناضل ضد الإلحاد، ويدعو - فى إصرار - إلى الاهتمام بالروح وماوراء المادة. ولأنه يمثل "الوسطية والتسوية" بين سائر الأحزاب والصحف - فقد كان يحرص على نشر أخبار وقرارات ومؤتمرات الحزب الوطنى ، ويفعل نفس الشىء مع الأحزاب والجرائد الأخرى. وكان الدستور لا يخلو - عادة - من البحوث الدينية والاجتماعية والتعليمية والقانونية والاقتصادية.. إلى آخره .

تعقيب على ما نقلته آنفا عن أحد أعداد الدستور

(٣١)

(أ) لقد كان فريد وجدى ككل زعيم، وكل مفكر "إنسانى" كبير - يعمل جاهداً على ترقية الإنسان كل إنسان ، حيث كان. ولم يجد ما هو أجدى وأفعل - لتحقيق هدفه النبيل - مما وجد فى الإسلام.

إن الناس أعداء ما جهلوا . وسيأتى يوم - ليس بعيداً [2] جداً - يسود فيه الإسلام فى كل البلاد، وبين كل العباد . وقد وعد الله - ووعده الحق - بأنه سيظهره على الدين كله. لم يكن همّ «وجدى» واهتمامه بالمصريين وحدهم، وإنما بكل المسلمين أيا كان مكانهم فى أقطار الأرض. ولم يُنسه هؤلاء وهؤلاء واجبه نحو الآخرين (تعريف الإسلام لغير العارفين به) - ومن أجل هؤلاء الآخَرين ، ألف ونشر بالفرنسية وكان من أجمل أمانيه أن تصدر مجلته "الحياة" بالفرنسية والإنجليزية إلى جانب العربية (وكذلك فعل حين رأس تحرير مجلة الأزهر). لقد كان سعيه الدائب نحو إعداد «الإنسان الكامل» (بدنيا ودينيا وعقليا)، وفى حدود الطبيعة البشرية. الإنسان الذى صورته « وجدياته» أحسن تصوير. كان ككل صاحب رسالة كبرى - مؤمنا أعمق الإيمان «برسالته»، ومؤمنا أعمق الإيمان بوسيلته (الإسلام للسمو بالإنسان). قرأ واستوعب متميزاً فى

---

(١) لم تظهر موسوعتاه الكبيرتان (كنز العلوم واللغة ، ودائرة المعارف) إلا بعد توقف الدستور عن الصدور (وانظر عنهما بند : ١٠ فصل ٣)

(٢) وقد تنبأ «شو» بأن الإسلام سيكون دين أوربا خلال قرنين «جورج برنارد شو» ١٨٥٦ - ١٩٥٠ - الموسوعة العربية الميسرة ص ١٠٩٩، وانظر البند ١٥ وص ٤١ - هامش ١ .

ذلك ومتفوقا على سائر معاصريه. وألف ونشر، متميزاً فى ذلك ومتفوقا على سائر معاصريه. ومن أجل الإسلام، والتمكن منه، والتمكين له، والدفاع عنه، قرأ وألف فى اللغة والفلسفة وعلوم الاجتماع والعلوم الكونية والطبيعية وغيرها، وعناوين كتبه - وقد سبق ذكر بعضها - تدور حول الإسلام، والإسلام من أجل الإنسان كل إنسان!

(ب) لفظ «الدستور» كمصطلح قانونى :-

أسماه البعض «القانون النظامى» وأطلق عليه آخرون «القانون الأساسى». وأيا كانت التسمية فهو «أبو القوانين». وإذا جرت الأمور كما يجب أن تجرى - فالتى تضع الدستور جمعية تأسيسية، تختار الأمة أعضاءها بكامل حريتها. والأمة فى الإسلام، (أو المكلفون منها) (أو هيئة الناخبين) هى المكلفة مباشرة(1)، أو عن طريق نوابها ووكلائها وموظفيها -بالقيام بوظائف الدولة - من تشريعية وتنفيذية وقضائية - وذلك بأعمال (أو قرارات) (Actes) تشريعية (ويقوم بها المجلس التشريعى المنتخب) - (مجلس الشورى)، وتنفيذية (وتقوم بها الحكومة أو الوزارة ومعاونوها من الموظفين والعاملين)، وقضائية، (وتقوم بها الهيئة أو السلطة القضائية) ويجب أن تكون هذه الهيئات أو السلطات[2] (التشريعية والتنفيذية والقضائية) - مستقلة ومتوازنة حتى لا تطغى إحداها على الأخرى.

والقرآن والسنة - فى الإسلام - هما «الإمام والمنار والدستور». والربوبية - فيه لله وحده، ومن منطلق هذه العقيدة، فالجميع متساوون. ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى «إن أكرمكم عند الله اتقاكم» (١٣ - الحجرات). والولاة جميعا، وفى أى موقع، ملتزمون بالدستور الإسلامى، والقوانين واللوائح المنبثقة من هذا الدستور.

والأمة هى أصل الولاية ومصدرها، فمن أصلح من الولاة والعمال أولته الأمة ثقتها وجددت اختياره ممثلا لها. ومن أفسد أو انحرف فى استعمال صلاحياته أسقطته أو عاقبته، وذلك كله وفقا للدستور والقوانين المعمول بها فى توزيع الصلاحيات والمسئوليات. وأعتقد أن هذا - أو ما يقاربه - كان فى ذهن[3] صاحب «الدستور - الجريدة اليومية السياسية - حين اختار لها هذ الاسم.

---

(١) قيام الأمة أو الشعب بالعملية التشريعية «مباشرة» - تُمَارس (فى بلاد ودساتير مختلفة) بطريق الاستفتاء. وهذا - بصفة عامة - لا يكون إلا فى المسائل الهامة، وما عداها يتولاه المجلس التشريعى.

(٢) تستخدم الدساتير الحديثة كلمة «سلطات» وتعنى بها وظائف الدولة تارة (انظر - على سبيل المثال - المادة ٦٥ من دستور ١٩٥٦) كما تعنى بها الهيئات التى تمارس هذه الوظائف تارة أخرى. (انظر - مثلا - المادة ٦٦ من الدستور المذكور) (وانظر تفاصيل أكثر فى «الإسلام والقضاء» مع دراسة متعمقة فى «العمل القضائى فى القانون المقارن والجهات الإدارية ذات الاختصاص القضائى فى مصر» ١٩٩٣ - (مدخل للدراسة) (ص٨).

(٣) وقد سبق أن ذكرت قوله (فى البند ٢٠) (أ) «فالدستور يعنى جعل الأمر بيد إرادات مجتمعة لا إرادة واحدة..»

(جـ) أشار العقاد فى كتابه «رجال عرفتهم» (ص١٦١) إن وجدى كان فريد عصره فى أشياء وأشياء وأنه كان أكثر انفرداً حين استقل وحده بإصدار جريدة يومية، ولم يكن معه من المحررين غير «العقاد» ولو استطاع أن يؤدى أعمال التحرير خارج المكتب، ومنها الأحاديث وأخبار الدواوين لاستقل وحده بالإدارة والتحرير.

(د) أهداف الدستور :

لم يشأ وجدى رحمه الله، وطيب ذكراه ومثواه أن يزيد الأحزاب القائمة، عند صدور الدستور فى ١٠ شوال ١٣٢٥[١] حزبا، ولا أن يضيف إلى الجرائد الموجودة جريدة تكون تكرارا لها، أو نسخة منها أو من إحداها، أو على صورتها فى التنازع والتشاكس، شأن كل شخص أو جريدة اشترت الدنيا بالآخرة. لقد كان وجدى صديقا لمصطفى كامل وكان عضوا فى اللجنة العليا للحزب الوطنى، وكانت «جريدة الدستور» تعتبر لسان حال الحزب مع اللواء، لكنه (أى وجدى) لم يكن قط تابعا لأحد، ولم تكن الدستور قط صدى للواء أو غير اللواء. لقد أنكروا عليه أن يخالف الزعيم، أو أن يرى رأيا يعارض ما رأته اللجنة، ثم ينشر رأيه المخالف أو المعارض فى صحيفته . لقد كان يفهم «الحرية داخل الحزب» على نحو لم يتقبله الآخرون فى الحزب. ولما اشتد الخلاف بينه وبين اللجنة - بعد وفاة مصطفى كامل ترك اللجنة والحزب متمسكا برأيه واستقلاليته وحرية صحيفته. لقد كان يفهم الولاء للحزب على نحو مختلف عن فهم الآخرين له. وهل الولاء للملَكيةَّ أو لمبادىء الحزب فى بريطانيا يمنع المواطن من نقد تصرف لأحد أفراد الأسرة المالكة،أو معارضة رأى تمسك به الحزب أو زعيمه؟! لقد كان يأخذ على جريدة اللواء - مثلا - شدتها وعنفها(٢).

ولما تحول الشيخ على يوسف (وصحيفة المؤيد) من معارضة الدولة المحتلة لبلادنا إلى مهادنتها (فى أعقاب الوفاق بين الإنجليز والخديوى) - بعد كرومر، استنفر الأمة ضد هذا التحول.

أما «الجريدة» (لسان حال حزب الأمة) (ومن أسموا أنفسهم، ونظرت إليهم بريطانيا على أنهم «أصحاب المصالح الحقيقية» فإنهما (أى الجريدة والحزب) قد بدأ واستمرا على مهادنة دولة الاحتلال، بل وممالأتها؛ انطلاقا مما أسموه «مذهب المنفعة». ولم يَكُفّ وجدى قط عن تفنيد هذا المذهب وكشف «حقيقة القوم». وأقول: غير بعيد أن يكون «مذهب المنفعة» هذا قد نَبَتَتْ

---

(١) ١٩٧٠/١١/١٦م.

(٢) والمبدأ الأول فى الإعلان السالف الذكر: بيان وسائل الحصول على الحقوق الطبيعية عن طريق الآداب الاجتماعية السلمية. هذا، وفى تاريخ لاحق ظهر فى شبه القارة الهندية مناضل فذ هو المهاتما غاندى الذى قاد الدعوة إلى استقلال الهند (التى استمر الإنجليز فى احتلالها زمنا طويلا) بالطرق السلمية (العصيان المدنى). وقد تحقق للهند استقلالها فى أعقاب الحرب العالمية الثانية.

جذوره في تربة المذهب المادي، الذي يذهب معتنقوه إلى أن الدهر هو بدايتهم، وأن الدهر هو نهايتهم(١)،« وكبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا» (٥ - الكهف).

لقد قصد وجدي بإصدار الدستور خدمة «الوطن والدين، خدمة خالصة صادقة»، ولقد عاشت «الدستور» ما قدر الله لها أن تعيش - وفية لأهدافها، وبإخلاص وصدق فريدين.

ولقد عاش وجدي، ومن فوق منبر «الدستور» خادما لقارئه، وآخذا بيده نحو المثل الرفيعة التي وهبها كل حياته. لقد كان كأنه «دولة ناهضة» قد حشدت كل قواها، وسخرت كل مرافقها للنهوض بكل أفراد شعبها وأمتها - منطلقةً وقائمة على مبادىء دينها ومنفتحة ومستفيدة من تجارب الأمم المتقدمة. لقد كانت "الدستور" (٢) كأنها جامعة تضم عددا من الكليات والأقسام التي جندت العقول والأقلام لنشر أسمى القيم والثقافات، ليس بين طلابها وداخل قاعاتها فحسب بل وبين أفراد الأمة.

هـ) - الحرية، والثورية، والتجددية والانفتاح على الثقافات المعاصرة :-

عرف وجدي " الحرية المهذبة المستنيرة" وهي قبس من نور الله. « ومن لم يجعل الله نورا فماله من نور» (٤٠ - النور). لقد عَرَّفْتُ الحرية - في كثير من كتبي بأنها "إرادة الإنسان وقدرته على ألا يكون عبداً لغير الله" . ولقد تجسد هذا المعنى للحرية في إنسان كريم على نفسه، كريم عند الله والناس، هو "محمد فريد وجدي" يرحمه الله رحمة واسعة. عرف وجدي "هذه الحرية" وعاشها بكل نبض قلبه، ونور عقله، ومارسها بكل طاقاته، مترفعا عن كل السفاسف والأساليب التي استعبدت كل هؤلاء الذين « لا يعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون» (٧ - الروم). عرف هذه الحرية، وعلى هذا النحو، ومن أجلها، وتحت شعارها أصدر الدستور (صحيفة يومية سياسية إسلامية)(٣) - واشترى لها مطبعة، واستوفى لها كل المقومات، وحررها من كل مايذل أعناق الرجال. هذا الرجل الذي عرف الحرية على هذا النحو، والتي سرت سريان الدماء الزكية في كل كيانه، هذا الرجل المستقل، عرف للآخرين حريتهم واستقلاليتهم، ونشر لهم آراءهم في الدستور، وإن خالفت آراءه، ثم يتبعها بتعقيب إذا استدعى الأمر.

وكان وجدي ثوريا تجدديا، وبهذه الثورية والتجددية، واجه القوة والكثرة، وحارب البدع التي ظنها البعض من الدين، وماجاء الدين إلا ليخلص النفوس منها ومن أوهامها ، حارب المهازل

---

(١) إن آفة الآفات في عصرنا هو «الانفصال» بين الإنسان جسديا وماديا ونفعيا، وبين ذات الإنسان روحيا ودينيا وخلقيا - إننا نراه في سلوكياته - وقد استغرقته الدنيا والمادة. أما الدين والأخلاق الكريمة فقد رماهما وراء ظهره. وفيما يعرف بالدول المتقدمة تقدم مادي مبهر، وتخلف ديني وخلقي مؤسف.

(٢) ومعها "مجلة الحياة" ومدرسة العلوم العالية.

(٣) بروحها، وإن لم يكن هذا موجوداً في شعارها، في البداية.

التى لابست الكثير من الطقوس والمواكب الصوفيه. إن مصدرها الجهل بحقيقة الدين ، وبحقيقة الصوفية. وإلى جانب هذا كله لم ينس «الدستور» مسئوليته نحو تنشيط حركة النهضة المصرية، والدعوة إلى التعليم والتربية، ورفادة كل مامن شأنه إعداد المصرى للاستقلال والحرية، كما دأب الدستور على نشر المباحث فى العلوم السياسية والاقتصادية.. ولم يقف صاحب الدستور عند حد الدعوة إلى التعليم، والتعليم العالى فى صحيفته، بل، ومن أجل هذا الهدف الرفيع أنشأ "مدرسة العلوم العالية" وكان مايلقيه فيها أشبه بما يُلْقَى على طلاب الدراسات العليا. وإلى جانب الدستور (اليومية) كانت هناك "مجلة الحياة" الشهرية، للمباحث الرفيعة فى الدين الإسلامى والفلسفة والاجتماع .. إلى آخره.

(و) - سبقت الإشارة (فى البند ٢٠ - فقرة ب) إلى "مدرسة العلوم العالية" .. وفى العدد المؤرخ ١٩ من شوال ١٣٢٥ هـ - ٢٥/ ١١/ ١٩٠٧ من "الدستور" - مقال افتتاحى بقلم محمد فريد وجدى، وهو بعنوان "تاريخ الشرائع" (مقتبس من دروس مدير الدستور "بمدرسة العلوم العالية") - أنقل هنا منه نقاطاً عن شريعتنا الغراء. وفى البداية، ووضعاً للأمور فى نصابها أقول :

(إن الصياغة صياغتى ، وهذا فضلا عن إضافات كثيرة جرى بها قلمى انطلاقا من تخصصى وثقافتى) : قال وأقول : لكل شريعة أصلها ومصادرها والمصدر الأول للشريعة الإسلامية هو القرآن : كتاب الله المنزل من عند الله على رسول الله. والمصدر الثانى لها هو السنة الشريفة . وفى سورة النجم يقول تعالى **«والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وماغوى. وماينطق عن الهوى. إن هو إلا وحى يوحى. علمه شديد القوى»** (الآيات الأولى من السورة). إن الشريعة الإسلامية وهى من عند الله هى فى نفس الوقت شريعة الفطرة والعقل. إن فيها السلام والسلامة والكمال جميعا . لقد محت ماكان لدى العرب وغيرهم من عادات جاهلية، وأحلت محلها القيم الربانية : محت التفاخر بالأنساب. وقررت المساواة فى الأحكام بين الجميع **«إن أكرمكم عند الله أتقاكم»** (١٣ - الحجرات). والناس كلهم لآدم وآدم من تراب. لافضل لأحد على أحد إلا بالتقوى. احترمت الحنيفية الغراء الحرية الشخصية. والإنسان حر مالم يضر، واحترمت الحياة البشرية، وقضت بقتل المسلم بالكافر. والمرأة فى الإسلام مخاطبة - كالرجل بسائر التكاليف والحقوق، والثواب والعقاب. إنها شريكة له . ولها ذمتها المالية المستقلة. وتتمتع مثله بالحقوق السياسية والمدنية والأدبية - وهى مكلفة - كالرجل بطلب العلم. وفى الحديث الشريف **«طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»**. أما فيما يتعلق بنظام الحكم فى الإسلام، فإنه يقوم - فى الأساس والأصل على دعامتين هما : الشورى والعدل بكل صورهما. ليس أبغض إلى الله من "الظلم" والمستبد - فى أى موقع كان - "ظالم" والله لايحب الظالمين. لقد عرف المسلمون، وعرفت الدنيا، ومنذ أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان - نظاما للحكم لم يعرفه الناس من قبل. ولم يعرفوه - كذلك وبنفس الطهارة والسمو - من بعد . وحتى اليوم. والإسلام دعوة عالمية. وسيمتد ويعود ويسود بإذن الله. والله متم نوره ولو كره الكافرون (١) .

---

(١) إن المادية الطاغية والغالبة فيما يسمى "بالعالم المتقدم" ستجرهم وتجر الجميع معهم إلى كارثة، إن لم يتدارك الله الناس برحمته، ويتوازن التقدم الروحى مع التقدم المادى وذلك بظهور الإسلام "والوسطية" على كل ما عداهما .

الدستور ومعالى الأمور (١)

(٢٢)

عاشت مصر قرونا نهبا لكل ناهب، وفريسة لكل طامع وغالب. وقد درجت الأقلام على وصف الحالة فى مصر، فى أعقاب الاحتلال الإنجليزى لها - بأن السلطة الشرعية فيها كانت للدولة العثمانية،(٢) والأريكة الخديوية. أما السلطة الفعلية فقد صارت للدولة المحتلة (إنجلترا) ولممثلها فى مصر (اللورد كرومر وقتئذ). وبالمعيار الإسلامى (وهو فى نفس الوقت المعيار الفطرى والعصرى أيضاً) فإن هؤلاء وهؤلاء جميعا كانوا مغتصبين للسلطة (سواء من منطلق الادعاء، أو بحكم الواقع). ذلك أن الولاية الشرعية لاتكون إلا للأمة ، ولممثليها الذين اختارتهم بإرادتها الحرة.

هذا ، وقد أفلحت الحركة الوطنية بزعامة مصطفى كامل فى إرغام كرومر على الاستقالة فى أعقاب أحداث دنشواى، وإحلال "غورست" محله . كان كرومر يناوئ الخديوى (عباس حلمى). أما «غمورست» فقد هادنه فى هذه الفترة (١٩٠٦ - ١٩٠٧ م) كان اللواء (لسان حال الحزب الوطنى)، وكان المؤيد (لسان حال حزب الإصلاح على المبادىء الدستورية) وكانت الجريدة (لسان حال حزب الأمة) - كانت هذه الثلاثة أهم - أو من أهم الجرائد اليومية وأوسعها انتشاراً. وكان المؤيد وبعبارة أخرى (الشيخ على يوسف) - وعلى مدى عهد كرومر يشارك اللواء فى الحملة على الاحتلال، وعلى المعتمد البريطانى ممثل الاحتلال فى مصر. وفى ظل الوفاق بين الخديوى والإنجليز - غير المؤيد اتجاهه، وهادن (مع الخديوى) - أصحاب السلطة الفعلية. أما الجريدة، فقد استمرت (بعد المهادنة كما كانت قبلها) مع الانجليز أصحاب الكلمة العليا فى مصر وقتئذ. فى هذه الظروف ظهر الدستور (٣) الذى لم يكن - قط - نسخة من الجرائد الأخرى السابق ذكرها، وغيرها ، كالمقطم والأهرام وغيرهما . لقد كانت الدستور- فى البداية وقبل وقوع الخلاف بين صاحبها وبين الحزب الوطنى - تعتبر اللسان الثانى للحزب بعد اللواء. وحتى فى ظل الوفاق بينهما ، كانت الدستور مستقلة، وعلى النحو الذى أراده لها صاحبها ، الرجل المسلم الذى "لايخشى فى الحق لومة لائم"(٤) ذلك "فضل الله يؤتيه من يشاء"(٥).

كان فريد وجدى - دائما - رجلا "ذا مبدأ" (نبت وترعرع فى بيئة إسلامية ربانية) وقد دعم هذا التكوين اطلاع واسع - قليل النظير - على الثقافات القديمة والحديثة. وفى سبيل

---

(١) فى الحديث الشريف "إن الله تعالى جواد يحب الجود، ويحب معالى الأخلاق ويكره سفسافها." - (الطبرانى فى الأوسط عن جابر).

(٢) وهى دولة الخلافة الإسلامية . (٣) فى ١٦ / ١١ / ١٩٠٧ م.

(٤) ، (٥) انظر الآية ٥٤ المائدة.

المبدأ واجه القوة والكثرة، ولم تزحزحه الأحداث العاتية عن مبادئه قيد أنملة. نذر نفسه للجهاد في سبيل الحقوق الطبيعية والإنسانية لأمته. وقد كان فى ذلك الرائد الذى لم يضل، ولم تتفرق به السبل. لقد كان يعمل جاهداً من أجل وحدة الأمة وكان يرى أن التنابز والتراشق بالمعايب بين الأحزاب والصحف، يضعف الجهود الوطنية، ويخدم أهداف المحتل المغتصب.

كان الخديوى عباس – أول الأمر ، ولسنوات عدة – ضالعا مع الحركة الوطنية ومشجعاً لها . ولم يكن المقصود من مهادنة الإنجليز للخديوى منذ تعيين «غورست» معتمدا لها فى مصر – لم يكن المقصود منها إلا صالحها هى. وكانت سياسة "فرق تسد" سياسة ثابتة للإنجليز فى مصر وفى غير مصر، وقد كانت ، وستبقى سياسة كل مستغل مستبد. وقد استطاعت انجلترا بعد تكوين الأحزاب ، وبالوفاق، بينها وبين الخديوى، أن تحول "المؤيد" الواسع الانتشار – إلى "مهادن" بعد أن كان من أقوى مناوئيها . وأخذت الأحزاب وصحفها تتصارع وتتراشق، لا من أجل مصر ، بل من أجل مصالحها هى . وكان فريد وجدى عضوا فى اللجنة التى حلت محل مصطفى كامل بعد وفاته، فرأى أنها انحرفت عن مبادىء الحزب التى أرساها مؤسسه، كما لاحظ تجاوز "اللواء" حد الاعتدال فى خلافه مع "المؤيد والجريدة" وساءه أن يرى الأحزاب وصحفها تتقاتل فيما بينها، بدلاً من أن توجه إلى العدو المحتل لبلادنا كل قوتها وسهامها . هنا دعا إلى إسناد المسئولية إلى العارفين ببواطن الأمور من أهل الحنكة والفطنة، وذلك بإنشاء رابطة أو هيئة أو اتحاد يكون فوق الأحزاب، يجتمع فى شكل مؤتمر كما هو الشأن فى كل أمة عند الملمات. لقد دعا الرجل المخلص إلى جمع الشمل ضد العدو الحقيقى، لكن دعوته ذهبت كصرخة فى واد ، ومامن سميع ولامجيب. وفى تاريخ مقارب، وعقب سقوط السلطان عبد الحميد، وصعود الاتحاديين إلى سدّة الحكم فى دولة الخلافة، أخذوا فى انتهاج سياسة التقارب مع بريطانيا (العظمى وقتئذ)، وشعر وجدى بحسه الوطنى ، وخبرته الطويلة بأن هذا التقارب سيكون على حساب مصر، فدعا إلى عقد مؤتمر وطنى يتكون من سراة المصريين وعلمائهم، أى كل "أهل الحل والعقد" (كما فى لغة الفقه)، وذلك لبحث الموقف واتخاذ القرارات التى تحد من مطامع المحتلين لمصر. وقد قوبلت دعوته بالتهكم والاستهجان ، حتى من الحزب الوطنى ولجنته العليا، ومن اللواء (لسان حال الحزب)، مما دعا المتَرْجم له إلى التخلى عن الحزب الذى تنكر لمبادىء مؤسسه. إن الرجل الذى عاش حياته كلها (حتى الفترة السياسية منها) – ملتزماً بالأدب القرآنى والنهج النبوى، فى تقديم النصح لعامة الناس وخاصتهم – أرقه أن يرى "أهل الدعوة" و"حملة الأقلام" لايلتزمون بما يلزمهم به الإسلام من شروط النقد والنصح. وفى حديث شريف[1] "من أراد أن ينصح لذى سلطان، فلا يبده له علانية، ولكن ليأخذ بيده فيخلو به، فإن قبل منه فذاك، وإلا فقد أدى الذى عليه." .

---

(١) الأموال لأبى عبيد – رقم ١٣ ص ٥٤. وهذا النص موجه بالذات – وفيما أرى – للمستشارين من حاشية الأمير أو الحاكم. لقد تطورت الأمور، فنحن الآن ننصح للحاكم ولغيره من عامة الناس وخاصتهم عن طريق وسائل الإعلام المختلفة، والتى تحمل النقد أو النصح من أدنى الأرض إلى أقصاها.

إنه إذا كان "النقد" – فى الفقه المعاصر – حقا، فإنه (أى النقد أو النصح) – فى الإسلام فرض. إنه أمر تعبدى يجب أن يتنزه عن الرياء أو المفاخرة أو الإعلان. أى أنه لن يكون تعبديا، ولا مثمراً إلا إذا كان لوجه الله. إنه – وبهذه الشروط – من أهم الأسس والمنطلقات لحسن استعمال الحرية فى الإسلام. إن تجاوز الحاكم لصلاحياته شر . وإن سوء استعمال الحرية شر. ولن يكون من وراء هذا الشر أو ذاك إلا شرور أكبر!

بضاعتنـــــا
التى تنكرلها حكامنا - فهجرتنا إلى غيرنا
والإرهاصات - فى كل الآفاق - تنبىء بعودتها إلينا

(٢٣)

الإسلام – أولاً، وأساساً – عقيدة. هذه العقيدة تعنى شهادة أن "لاإله إلا الله وأن محمدا رسول الله" . وهذه الشهادة تكون باللسان وبالجنان، كما يجب أن يصدقها العمل ويؤكدها السلوك، ويجسدها أقوالا وأفعالا. مع هذه العقيدة لا تكون العبودية إلا لله. ولاسمع ولاطاعة إلا لله ولرسول الله، ولكل من دعا إلى مافيه طاعتهما. ولاسمع ولا طاعة لأحد فى معصية الخالق. لاعبودية – بعد ذلك ومعه – لفرد ولا لجاه ولا لمال ولا لأى شىء فى الحياة. ولن يكون "المسلم مسلما سويا" إلا بهذه العقيدة السوية النقية التى تفرض على صاحبها عدم السكوت على الظلم، ولا الركون إلى أهل الظلم(١). و"الساكت عن الحق شيطان أخرس" وفضل الجهاد فى الإسلام عظيم «وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيماً» (٩٥ – النساء) والجهاد أنواع منه جهاد النفس ، والجهاد درجات و"أفضل الجهاد – كما جاء فى الحديث الشريف – كلمة حق عند سلطان جائر" .

والإسلام دين وعقيدة، وهو كذلك دنيا وسياسة ودولة. وكما أن للإسلام أركانه الدينية، فله – كذلك – أركانه وأسسه السياسية والاقتصادية والاجتماعية.. وفى مقدمة هذه الأركان والأسس الحرية والشورى والعدل بكل صوره. (ومنه العدل الاجتماعى).

(وكلها قبس من نور الله. فلا إسلام مع الاستبداد، ولا إسلام مع الخلل الاقتصادى أو الاجتماعى. وإنه إذا كان على الأفراد العمل بقدر الطاقة لزيادة الإنتاج، وإذا كان عليهم الاعتدال فى الإنفاق والاستهلاك، فعلى أولى الأمر أن يكونوا قدوة فى هذا وذاك، وعليهم – إلى ذلك – العدل فى التكاليف وتوزيع الدخول . إن العدل، وبكل صوره – هو أساس الاستقرار القائم على الرضا والاقتناع.

---

(١) ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار .. (١١٣ – هود)

أذكّر – بعد هذا – بقوله تعالى : « ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب ، من يعمل سوءا يجز به..» (١٢٣ – النساء) . والعكس صحيح "فمن يعمل خيراً يجز به" .

أذكر – أيضا – بأننا ندين من ليس على ديننا، ولا ندين أنفسنا، بتقصيرنا فى تعريفهم بهذا الدين ثم دعوتهم إليه.

وأذكّر – ثالثاً – بقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (الذى عاش فى الغرب زمنا مع صديقه جمال الدين الأفغانى، يحرران ويصدران "العُروة الوثقى") – أذكّر بقوله – مقارنا بيننا وبينهم "وجدت بيننا مسلمين بلا اسلام" (أى مسلمين بالاسم فقط) "ووجدت هناك إسلاما بين غير مسلمين" . إن القرآن الكريم يخاطب نبينا العظيم بقوله : «وأمرت لأعدل بينكم» (١٥–الشورى)، وهذا لايعنى "العدل القضائى" فقط، وإنما الإنصاف بإطلاق . إننا نناضل ويجب أن نناضل ونناضل، ضد ظالمينا ومستغلينا منهم. وياليتنا نوحد صفوفنا ومواقفنا إزاء مواقفهم منا . إن الناس – عامة – وفى المجال السياسى الدولى خاصة – لايحترمون إلا القوة. والاتحاد قوة، ومع تفرقنا لن تكون لنا قوة ولا هيبة! أعود وأقول: إنهم ظالمون لنا أما نحن فقد حرّم الله علينا الظلم. ونحن نعامل الآخرين بديننا، وليس بدينهم وقوانينهم. إننا مأمورون بالعدل فى سائر الأحوال، حتى مع الأعداء ، وأعدى الأعداء، وحتى مع المخالفين لنا فى الدين. ومن العدل الإنصاف، كما سبق أن قلت. ومن هذا المنطلق، فإنى أشير إلى ثوراتهم وتضحياتهم : إلى التطورات الدستورية فى انجلترا، وإلى الدستور الأمريكى، وإلى فرنسا وثورتها الكبرى. (وانظر فى ذلك للمؤلف : الإسلام وحقوق الإنسان – دراسة مقارنة) – بنود (١٠٠ – ١١٧) وهم ومن اختار نهجهم السياسى كاليابان والهند وأوربا الغربية عامة يخطون خطوات حثيثة نحو المزيد من الديمقراطية والاشتراكية (أعنى الحرية والشورى والعدل الاجتماعى) إن هذه كلها – أيا كان صانعوها – تراث إنسانى يملكه الجميع.

وإذا راجعنا الإعلان الذى نشره وجدى فى الدستور (وسبق تلخيصه)، وإذا راجعنا التعريف بمجلة الحياة – (وقد سبق ذكره) – نجد فى سطورهما وفيما بين سطورهما ، الإشارة إلى بضاعتنا ، التى تنكر لها حكامنا، فهجرتنا إلى غيرنا .

وبعد : فإنى أكتب السطور التى تأتى بعد، وفى ذهنى أشياء كثيرة، إنها هموم اليوم والغد، وإنها آمال اليوم والغد كذلك. فى ذهنى حضور كبير لما جرى ويجرى فى أفغانستان، وفيما جرى ويجرى فى الجزائر، وفيما جرى ويجرى فى الجمهوريات الإسلامية التى ظهرت واستقلت بعد انهيار الاتحاد السوفيتى (إحدى الدولتين الأعظم حتى شهور مضت)، وفيما جرى ويجرى فى البوسنة والهرسك بعد تفكك الاتحاد اليوجوسلافى، وفيما جرى ويجرى على الأرض العربية وخاصة بعد حرب الخليج، وتحرش اسرائيل، وأمريكا من ورائها – تحرشهما بليبيا وسوريا وما عسى أن يكون معهما ومع غيرهما من بلادنا العربية والإسلامية. إنه طوفان من العداء للعرب وللإسلام، لا يصده ولايرده إلا اتحادنا، ووحدة صفنا . وهذا – على مايبدو – لن يتحقق – على الوجه الأكمل – إلا بعد أن يكون الحكم للشعوب.

وأعود وأقول : لقد انتصر المجاهدون فى أفغانستان ضد الاتحاد السوفيتى، وضد عملائه من الأفغان. وعاد المجاهدون إلى كابول. وكل الأمل والدعاء إلى الله أن ينسوا خلافاتهم ويعملوا فى جد، وخطوة خطوة، لإقامة الدولة الإسلامية على أرضهم. لقد عادوا من الجهاد الأصغر (الذى ذهبت فى سبيله أرواح الملايين فى الحرب وعذاب الملايين فى المنفى) – عادوا إلى الجهاد الأكبر – جهاد النفس ! أسأل الله الا يتخلى عنهم. أما الجزائر، وماجرى ويجرى فيها فهو – بكل المقاييس – إحدى مآسى العصر. لقد قال الشعب الجزائرى كلمته فى انتخابات حرة، وأفصحت صناديق الانتخاب – بما لايدع مجالاً للبس – أنه اختار الدولة الإسلامية وأرادها . لكن بعض العملاء من الداخل، وبعض القادة فى الجيش – وبتدخل من الخارج وتبريك بلا ريب! قاموا بانقلاب ضد الشعب المسلم البطل. إن إرادة الشعوب من إرادة الله. وعما قريب سينكسر القيد، وينتصر الشعب ! وأما فى جمهورية البوسنة والهرسك، فقد قرر شعبها (وأغلبيته من المسلمين) – وفى استفتاء حر – قرر الاستقلال . لكن الجيش اليوغوسلافى – (وأغلبيته من الصرب)، يريد قهر الجمهورية وبالقوة – على البقاء فى فلكه ! بل إنه يعمل على تشتيت الشعب المسلم، وإفنائه واغتصاب أرضه..!

فماذا نحن فاعلون ؟! وماذا ستفعل المجموعة الأوربية، والمجتمع الدولى فى ظل مايسمى بالنظام الجديد[1] ؟!

وأعود مرة أخرى إلى العرب والإسلام، فى أرض العرب، وغير أرض العرب – أعود وأقول: إن كثيرين من حكام بلادنا العربية والإسلامية لم يُعِدُّوا ويُهَيِّئُوا لحمل الأمانة الكبرى : إعادة الدولة الإسلامية، إلى البلاد الإسلامية. والله ينصر من ينصره..!

---

(١) العنوان الرئيسى بالصفحة الأولى من عدد ١٤ مايو ١٩٩٢ من الوفد هو "تصاعد الحملات المعادية للعرب والمسلمين فى أوربا – السفارات المصرية تتحرك للرد على ادعاءات الإعلام الغربى كشف تقرير لبعثة جامعة الدول العربية فى مدريد عن تعرض العرب والمسلمين لحملة عنيفة لتشويه صورة الإسلام والعرب أمام الرأى العام الأوربى والأسبانى. إن العناصر الصهيونية قد اخترقت المؤسسات الرسمية الأسبانية وأجهزة الإعلام ، وإن الحملات تتصاعد مع أى حدث سياسى أو اقتصادى أو اجتماعى . وتصاعد الحملات الآن يزامن بدء عملية السلام لإنهاء النزاع العربى الإسرائيلى. وقد تلقى وزير الخارجية المصرى العديد من برقيات الاستغاثة من الجاليات المصرية والمسلمة المقيمة فى ألمانيا طالبة قيام البعثات الدبلوماسية المصرية بالرد على الإعلام الغربى الألمانى والإنجليزى والفرنسى.. الذى يسىء إلى الإسلام ووضع المرأة فيه.. وكشفت الجاليات المسلمة عن تصاعد الحملات الغربية ضد الإسلام بعد استقلال الجمهوريات الإسلامية بانهيار الاتحاد السوفيتى . ونمو التيارات الاسلامية فى الجزائر وغيرها . أقول : لقد سارعت الولايات المتحدة الأمريكية بإنشاء سفارات لها فى الجمهوريات المذكورة. وأغلب ظنى أن أنشط الأجهزة فى هذه السفارات هو جهاز المخابرات المركزية فى أمريكا وانظر – أيضاً – الصفحة الأخيرة من نفس العدد – مقال بقلم محمود عبد المنعم مراد بعنوان : "نحن .. والذى يقال عنا" .

إلغاء الرتب والنياشين

(٢٤)

هذه فقرات من مقال لفريد وجدى بعنوان "بعض النواب الأتراك يسعون فى إبطال الرتب - فما أولانا نحن بالجد منهم فى هذا السبيل" ! (والمقال بالصفحة الثالثة من العدد ٣٤٢ من الدستور - ٢٩/ ١١/ ١٣٢٦ - ٢٣/ ١٢/ ١٩٠٨) - قال : روت إحدى جرائد العاصمة أن فى نية الكثيرين من نواب الدولة - اقتراح إلغاء هذه الرتب والألقاب، حاضرها ومستقبلها. والاكتفاء بالأوسمة. فتلقينا هذا الخبر بالارتياح. ورجونا قرب حدوثه. ولاشك أن حدوثه فى بلاد الدولة يجر إلى حدوثه فى مصر. لأن هبة الألقاب من حقوق جلالة السلطان، فإذا ألغاها فى عاصمة ملكه، ألغيت هنا لامحالة اللهم إلا إذا تشبثت الحكومة المصرية فى استبقائها باسمها لا باسم السلطان صاحب السيادة العامة. ولكننا نظن أن رجال حكومتنا أعقل من أن يبقوا على أمر ظهر ضرره ظهور الشمس فى رابعة النهار. ثم مضى إلى الكلام عن «القصد من ابتكار الرتب والألقاب» وهو «إيجاد روح المنافسة فى صدور العاملين» ولكن خاب الظن وتحقق عكس الغرض. لقد صار الحصول عليها بطريق التدليس والغش، وبواسطة الوسائط المعروفة (وانظر : حياتى - لطفى السيد ص٧٩)، وكفى بهذا سقوطاً لقدر هذه الرتب وانحطاطاً لكرامتها. وياليت الأمر وقف فى مصر عند هذا الحد، فقد خربت بسببها بيوت كانت عامرة، وفسدت أخلاق كانت صالحة. ثم أشار إلى ما يحدث فى القرى، إذا أخذ اللقب رجل فى القرية تلتهب نيران الغيرة فى صدور منافسيه، فينفقون على المظاهر الكاذبة، ويقيمون المآدب للمدير، والزينات لموكب الجناب العالى إذا مر ببلدته برا أو بحرا. وربما استمر على ذلك سنين ليعدّ من اللائقين للرتبة .. كل ذلك والربا يعمل فى ماله ليلاً ونهاراً، ولا يمضى وقت حتى تصبح أطيانه كلها رهنا لديونه، ويصبح هو أسيرا للبنك.

إن منح الرتب والألقاب من النقائض التى لا يجوز التمادى فيها فى عصر نال فيه العقل سلطانه الكامل على النفوس، ونزعت الهمم منزع المساواة وإبطال الامتيازات. وأصبح الناس - بعد أن كانوا يؤلهون الملوك يعتبرونهم ممثلى سلطتهم وخادمى دولتهم، فما بالك بمن دونهم من أصحاب الألقاب الوهمية!

أقول : إن بعض البلاد «كفرنسا» قد ألغت الرتب والألقاب منذ أكثر من قرنين، كما أن بعضها «كانجلترا» وهى من أهم معاقل الديمقراطية السياسية فى أوربا الغربية ما زالت مبقية عليها. والعبرة بحسن الاستعمال، أو بسوء هذا الاستعمال.

وفى البلاد المتخلفة يكون سوء الاستعمال هو الغالب. ما أكثر ما أسىء استعمال هذه الصلاحية فى مصر! وما أكثر ما كانت الرتب والألقاب مبذولة لمن يدفع الثمن، وقد كانت لها

تسعيرة! وما أكثر ما كانت وسيلة للترغيب والترهيب والضغط! كانت رتبة الباشوية تعطى لرئيس محكمة النقض، بل كثيراً ما أُعْطِيتْ لمن دون الرئيس. وقد حرم منها أحد الرؤساء، فعاش يجتر مرارة هذا الحرمان ! يا لها من مفارقة إذ ينزل الظلم بمن أمضى عمره فى إقامة العدل وخدمة القانون! لكنه «التخلف» و«حكم الفرد» ومعهما تختل الموازين!.

وأقول أيضاً : إنى أعرف بعض البلاد العربية الإسلامية التى ألغت الرتب والألقاب منذ عقود من الزمن، وأبقت على «الأوسمة» التى مازال سوء استعمال منحها ممتداً (لأسباب سياسية أوشخصية) وليس هذا فحسب، بل إن جوائز الدولة التقديرية والتشجيعية، قد يساء استعمالها. وفى جريدة الأهرام ص١٣ عدد ٨/٥/١٩٩٢، تحت عنوان «قضايا معاصرة - د./بدوى وثورة ٢٣ يوليو، وموقف الجامعات من ترشيحه» والكاتب هو الاستاذ/سامح كريم.

والمقال طويل ومما جاء فيه : ولعل البعض فى هذه الأوساط التى كان لها موقف من عدم ترشيح الدكتور بدوى لجائزة الدولة التقديرية قد تركوا لخيالاتهم العنان حيث فسروا موقف الجامعة من الدكتور بدوى على أنه نابع مما يقال - وهو بعيد عن الحقيقة - من أن لثورة ٢٣ يوليو موقفاً من هذا المفكر الكبير وأسرته. وتحديداً لموقف الثورة نقول .. إنه ليس هناك موقف للثورة من هذا المفكر الكبير .. وقدم الكاتب أدلة على أنه - بالعكس - كان موضع ثقتها.

ثم قال : والدليل الرابع أنه حين وضعت أملاك أسرته تحت الحراسة، فإن هذا لم يكن لموقف من الثورة، بقدر ما كان بفعل أشخاص طلبا لمجاملة آخرين !

أقول : لقد مضى على ما يسمونه «ثورة» أربعة عقود ومن المثير للأسى والأسف أن يكون الولاء لمذهب أو حزب سياسى، أو معارضتهما هو المعيار الذى ما زال قائماً - لتقدير الإنتاج العلمى.

إن هذا يعنى أن شعار : «أهل الثقة لا أهل الخبرة» ما زال يحيا بيننا!.

السياسة على المستوى الرفيع

(٢٥)

فى رسالة من المرحوم السيد رشيد رضا إلى صديقه المرحوم عبد القادر المغربى - حول جولة قام بها الأول فى بعض بلاد الوجه البحرى، وانتهت به إلى القاهرة حيث كان أول لقاء بين الشيخ رشيد والشيخ محمد عبده. (ص١٤٥٢ وما بعدها من مجلة الرسالة لصاحبها ورئيس تحريرها المرحوم الاستاذ أحمد حسن الزيات - العدد ١١٤ بتاريخ ١٩٣٥/٩/٩م - السنة الثالثة).

فى رسالة الشيخ رشيد أنه فى هذا اللقاء الأول أخذ الاستاذ الإمام يتحدث عن التربية والتعليم وإصلاح الأزهر وذكر الإمام أنه قال للسيد/ جمال الدين الأفغانى - حينما كانا فى فرنسا يصدران العروة الوثقى - دعنا من السياسة ولنأخذ فى تعليم بعض الطلاب وتربيتهم فلا تمضى عشر سنين إلا ويبرع منهم جماعة على رأينا، يحفزهم ما حفزنا إلى ترك الأوطان والهجرة فى سبيل نشر العلم والدين فى مختلف الجهات. ولكن السيد (الأفغانى) أبى عليه هذا وقال له : أنت مثبط. فلم يكن مندوحة من الانصياع له. وقال الشيخ عبده لو أن السيد ترك السياسة والتفت إلى التعليم لأصلح إصلاحاً عظيماً. كان هذا اللقاء بين الشيخ الإمام والشيخ رشيد عام ١٨٩٨م، أى قبل وفاة الإمام بسبع سنين .. فى هذه الفترة كان الاستاذ الإمام يكافح ويناضل من أجل إصلاح الأزهر. وعارضه كثيرون على رأسهم شيوخ الأزهر الذين جمدوا على القديم، ووقفوا عنده، وأبوا التحول عنه، وأصروا إصراراً على رفض كل جديد(١)! ووقف أمير البلاد وقتئذ إلى جانبهم!.

ولهذا الذى نقله الشيخ رشيد خلفيات كثيرة. فما أمرّ وأقسى ما لقى الشيخان : (جمال الدين وعبده) بسبب السياسة التى انغمس فيها كلاهما انغماساً. فالثورة العرابية (التى شارك فيها الشيخ عبده) كانت سياسة، بل «قمة السياسة». ونتائج الثورة على زعمائها ومنهم الشيخ عبده معروفة. ولو أعاد التاريخ نفسه، ما اختار جمال الدين غير ما كان. وهذا الذى كان هو الذى جعله «موقظ الشرق»! وكان السيد/ جمال الدين «سياسياً وكان فى سياسته «ثورياً». وكان جمال الدين معلماً وكان له حيثما كان - طلاب ومريدون. وكانوا فى مصر وغيرها - من خيرة الرجال، وكانوا وعلى رأسهم الاستاذ الإمام امتداداً لجمال الدين (السياسى والثائر والمعلم). وكان جمال الدين وكان الشيخ عبده وكان فريد وجدى - كانوا جميعاً «سياسيين» على المستوى الفريد والرفيع. وكانوا جميعاً «معلمين» فى حلقات السياسة والأدب والعلم، أو عن طريق الكلمة

---

(١) من ذلك ومما يؤسف له - أنه لما ألغيت (الميضأة) القديمة بالأزهر، وأقيمت بدلاً منها أخرى ذات صنابير (حنفيات) وهى بعكس الأولى - صحية - أثاروا الدنيا عليه بوصفه صاحب القرار !.

المكتوبة والمنشورة. وقد كان مصطفى كامل ومحمد فريد والشيخ عبد العزيز جاويش، وعبد الرحمن الرافعي وشقيقه أمين - كانوا - رحمهم الله جميعاً - «سياسيين». وبسبب السياسة عانى بعضهم من قيود السجون، وذاق بعضهم مرارة النفى. ولقد جنح بعضهم - لفترة طويلة أو قصيرة - إلى المجال العلمى، أوالتربية والتعليم(١).

وكلهم وفى كل مجال كانوا يهدفون إلى خدمة الأوطان. وإلى العمل من أجل الإنسان حيث كان. وفى مصر وعلى سبيل المثال - كانوا يحاربون فى جبهتين : ضد المحتل ليحمل عصاه ويرحل، وضد الحكام الطغاة، لأن الإسلام ولأن الفطرة ولأن الخير فى حكم الشعوب!.

ومما يؤسف له، ولأسباب حديثها طويل - وقد مضى على وفاة جمال الدين ومحمد عبده قرابة قرن من الزمان - لم يستطع حكامنا، وحتى اليوم، محو عار الأمية عنا، وهذا ولا ريب هو علة العلل فى تخلفنا .!(٢)

بين وجدى ومصطفى كامل

(٢٦)

بعد وفاة مصطفى كامل، كتب وجدى عنه عدة مقالات فى الدستور بعنوان «شىء عن فقيدنا المحبوب» . لقدتصفحت أعداد الدستور التى ظهرت فى أعقاب وفاة هذا الزعيم الوطنى الذى كان شعلة وهاجة من الحماس. وقد صارت هذه الشعلة أقوى ضوءاً عقب حادث دنشواى التف شعب مصر حول زعيمه الشاب وأخذ يردد الأغانى التى تشيد بشجاعته، ويمجد مواقفه.

لقد استطاع مصطفى كامل بقوة إيمانه وصدق لهجته أن ينعش آمال شعبنا الذى تآمر أعداؤه عليه لتثبيط همته، وإضعاف ثقته بنفسه بعد أحداث التل الكبير، واحتلال المتربصين به لأرضه. ومن أقوال مصطفى كامل التى لم تكن إلا صدى للأحوال المتردية فى مصر : «لو لم أكن مصرياً لتمنيت أن أكون مصرياً» وقوله : «لا حياة مع اليأس، ولا يأس مع الحياة».

ولقد لاحظت أن أعداد الدستور التى صدرت مع الوفاة وبعدها، تفيض بالمراثى الشعرية والنثرية، التى عبر بها الشعب، أفراداً وجماعات عن أساه على زعيمه الراحل.

---

(١) كان الشيخ جاويش - وعلى سبيل المثال - أول رئيس للجهاز الذى نيط به - فى العشرينات من هذا القرن - تعميم التعليم الإلزامى. وإعداد المعلمين فيه، وكان صاحب هذه السطور طالباً بمدرسة المعلمين الأولية بطنطا حين زارها الشيخ، ومازال يذكره، وهو يمر بين صفوفها بزيه المميز، ويشرح لنا بحماس الخطيب.!

(٢) فى شهر مايو ١٩٩٤ جاء فى بعض المناقشات - داخل مجلس الشورى - أن نسبة الأمية بين النساء فى مصر ٦٣٪، وبين الرجال ٣٦٪ وانظر - للمؤلف «صفحات من اليوميات - ص٥٢ وما بعدها . هذا وتوجد كسور فى رقمى ٦٣٪ ، ٣٦٪.

وأعود إلى ما كتبه وجدى تحت العنوان السابق الذكر فى عدد الدستور المؤرخ ١٤ من المحرم ١٣٢٦ هـ ١٩٠٨/٢/١٦م : أشار فى بداية هذا المقال الافتتاحى إلى تقرير اللورد كرومر عام ١٩٠٦، وهو آخر تقرير سنوى له. وفى التقرير مطاعن على الدين الإسلامى، نقلها كرومر عن أعداء الإسلام من أدعياء الاستشراق وعملاء الاستعمار. وإذا دلت على شىء فهو الحقد والجهل(١). وسارع مصطفى كامل إلى نشر هذه المطاعن وإبداء الاستياء منها، يقول وجدى: فاندفعت إلى تقوية صوته فى رسالة ذات أربعة فصول، حاكمت فيها أقوال اللورد إلى العلم والفلسفة محاكمة دقيقة، وأرسلتها إليه مع خطاب راجياً منه ترجمتها إلى اللغة الإنجليزية ونشرها فى الإچبشيان ستاندرد ليطلع عليها كرومر.

يقول وجدى : لم أكن رأيت مصطفى كامل من قبل، ذهبت إليه فى دار اللواء، بعد أن تلقيت منه خطاباً يثنى على فيه. وقد وجدت عنده اسماعيل باشا صبرى ومحمد بك فريد، وعلى بك فهمى (شقيق مصطفى) وآخرين. هش لى مصطفى وبش، وحيانى أطيب تحية وقدمنى إلى الحاضرين، قائلاً:

هذا فلان، صاحب مقالات «بحثى اليوم» فى المؤيد . يقول وجدى : أحببت الرجل – الذى كان ذا جاذبية قوية – من أول نظرة – وقد أكبرت فيه إشارته إلى مقالاتى التى نشرتها المؤيد وليست فى جريدته هو!، أقول:

لقد كان وجدى – دائماً عظيم الآمال (آمال المتفائل والمطمئن إلى مستقبل الإسلام) ومن هناكان حرصه على نشر بحثه فى جريدة مصرية تصدر باللغة الإنجليزية . إنه لم يشأ أن يقف عند دفع الشبهات، وإبطال المفتريات على الإسلام، بل كان دائماً – يقصد دعوة غير العارفين بالعربية إلى الدخول فيه. ومن هذا القبيل ما كان يرجوه من إصدار طبعة من «مجلة الحياة» بالفرنسية يحررها هو، وأخرى بالإنجليزية يحررها المتمكنون منها،

وأعود وأقول : إن الرسالة السابق ذكرها قبل قليل كانت السبب فى التقاء الرجلين العظيمين فريد وجدى ومصطفى كامل لأول مرة. يقول وجدى:

طفق صاحبى يكلمنى فى أمر الرد، ويبدى سروره الكبير من مبادرتى إلى نصرة الدين وكبت الملحدين، ثم قال لى ولكننى أرى فى مقدمتك لينا فى اللهجة لا يصح أن تكون عليه مقدمة رد على مطاعن فى الإسلام، وجهها إليه رجل من غير أبنائه، لا هم له إلا تجريح عواطف المسلمين وتسوىء سمعتهم.

فرد وجدى قائلاً : أليست إلانة القول مع قوة الحجة خيراً من الشدة التى ربما نفرته من قراءة البحث كله، فيفوتنى الغرض من كتابته؟ أقول : وهذا الذى تمسك به وجدى هو الأدب

---

(١) من مفتريات التقرير زعم صاحبه أن الإسلام هو سبب تأخر المسلمين، وأن الشريعة الإسلامية لا تصلح لهذا الزمان «ففيها إباحة للاسترقاق والطلاق وتعدد الزوجات .. إلى آخره. وقد تصدى للرد على هذه المفتريات كثيرون منهم أحمد شفيق باشا المتوفى عام ١٩٤٠، والذى ألف كتاباً عن «الرق فى الإسلام» بالفرنسية (انظر : الأعلام للزركلى، مجلد١ ص١٢٥، ١٢٦ وقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية أحمد زكى باشا – (شيخ العروبة) (المرجع السابق ص١٢٦، ١٢٧). ورد على هذه المزاعم لكرومر كذلك الشيخ رشيد رضا (د. طه الحاجرى نفسه ص ١٤٥).

القرآني، فحينما أرسل الله – سبحانه وتعالى – موسى وهارون إلى فرعون؛ الذى طغى فى البلاد، وأكثر فيها الفساد (وانظر الآيتين ١١،١٢ من سورة الفجر) – قال لهما : «اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى» (٤٣ ، ٤٤ طه). والآيات بذات المعنى كثيرة فى كتاب الله منها قوله تعالى " «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة. وجادلهم بالتى هى أحسن» (١٢٥ – النحل – وانظر الفصل الثانى وهو بعنوان : «وقولوا للناس حسنا». واستطرد وجدى قائلاً : «وما الذى يضرنى لو ألنت له المقدمة استدراجاً حتى إذا أنست روحه منى قصد الحقيقة، اطمأن إلى الموضوع وأشربه قلبه. فقال مصطفى كامل : كلا إنك لم تلن له القول فقط، بل عذرته فيما قال أيضاً، وقلت : إن فى المسلمين أنفسهم من يقول مثل مقالة كرومر افتتانا بالعلم الأوربى. وكفى بجملتك هذه مبرئاً للرجل فى نظر أهل دولته. ولا يبعد عليه أن يقول :

إنه معذور فيما ذهب إليه، بدليل ما كتبه فلان فى اللواء. قلت له : كل هذا ممكن ولكنى لا أنظر إلى هذه الاحتمالات ما دام الموضوع دينياً. ورب الدين يقول : «ألينوا القول للمخالفين ولا تخاشنوهم إذا دعوتموهم إلى الإيمان»(١).

قال مصطفى كامل : يا أخى، نحن فى وضع يجب علينا فيه أن نبث فى الأمة روح الحماس والحمية والغيرة بالكتابات المؤثرة. وهذه فرصة من خير الفرص لذلك؛ لا أن نقابلها – وهى فى هذا الغليان الوجدانى – بما يكسر نفوسها، ويطمن من إشرافها.

أقول : أول ما يتبادر إلى الذهن هو الإشادة بهذه الأمانة التى عُرف بها وجدى فى إثبات أقوال المخالف له فى أى حوار. وأقول : مع تقديرى للطرفين جميعاً، وما ذهبا إليه. ومع يقينى بإخلاص كل منهما وصدقه مع نفسه، ومع موقعه الذى اختاره الله له لخدمة أمته : مصطفى كامل السياسى الذى يؤثر الأسلوب الخطابى لإثارة الجماهير، ودفعها إلى عدم مهادنة «العدو» أو ملاينته ومحمد فريد وجدى الذى تأدب بأدب القرآن وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام. وفى القرآن الكريم : «ولا تستوى الحسنة ولا السيئة، ادفع بالتى هى أحسن، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم» (٣٤ – فصلت). وفى الحديث الشريف : أحبب حبيبك هونا ما، فعسى أن يكون بغيضك يوماً ما. وأبغض بغيضك هونا ما، فعسى أن يكون حبيبك يوما ما» (وانظر تفسير ابن كثير لقوله تعالى : «عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة، والله قدير، والله غفور رحيم» (٧ – الممتحنة). وفى السيرة الشريفة أمثلة كثيرة تجسد قوله تعالى : «...وأعرض عن الجاهلين» (١٩٩ – الأعراف). وفى تفسير القرطبى وابن كثير للآية : إنه إذا كان الخطاب لنبيه عليه الصلاة والسلام فهو تأديب لجميع خلقه. روى البخارى عن عبد الله بن عباس قال : قدم عيينة بن حصن، فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس بن حصن، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاوراته كهولاً كانوا أم شباناً. فقال عيينة لابن

---

(١) «الكلمة الطيبة صدقة» (حديث شريف) .. إلى آخره.

أخيه: هل لك وجه عند هذا الأمير فتستأذن لى عليه؟ قال : سأستأذن لك عليه .. ولما دخل عيينة قال : يا بن الخطاب. والله ماتعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل ! قال : فغضب عمر حتى هم بأن يقع به. فقال الحر : يا أمير المؤمنين - إن الله قال لنبيه عليه الصلاة والسلام «خذ العفو، وأمر بالعرف، وأعرض عن الجاهلين» وإن هذا من الجاهلين. فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه. وكان وقافاً عند كتاب الله عز وجل».

ولقد عاش «فريد وجدى» - الرجل المسلم - يقول الحق ولا يخشى فى ذلك لومة لائم.

وعاش فريد وجدى - الرجل الصادق الإيمان والإسلام والإحسان - يقول الحق بالأسلوب اللين الهادىء المقنع. ولا يصح فى النهاية إلا الصحيح.!

أحمد لطفى السيد

(٢٧)

كتب وجدى رحمه الله سلسلة من المقالات عن الصحافة المصرية، منها ما كتبه عن «الجريدة» (عدد ٥/١/١٣٢٥هـ - ١٩٠٧/١٢/١٠م) - بدأ وتكلم عن مُنْشِئى «الجريدة». وأشار إلى مناقشاتهم حول الجرائد الأخرى فى مصر واختلاف نزعاتها، فبعضها منتم إلى المعية الخديوية، يضحى فى سبيل رضاها بمصلحة الوطن (كما قالوا)، وبعضها ضالع مع السلطة المحتلة، لا يهتم أصحابها إلا بمصالحهم الخاصة من المال والرتب والجاه وما إلى ذلك، وبعضهم اتخذ الوطنية تجارة فغلا فيها. والأمة كما زعموا ما زالت فى مرحلة الطفولة، وما يكون فيها من جهل وقصور. وأزمع القوم على إنشاء جريدة مستقلة عن كل سلطة تجمع إلى علو تحريرها، جمال الرواء وأبهة الثراء. ولما تنامى خبرهم إلى اللورد كرومر (قيصر قصر الدوبارة) - أظهر الريبة، فما كان منهم إلا أن أوفدوا بعضهم لطمأنته، وقد عاد الوفد مزوداً بكل تشجيع منه. وشاع فى الناس أمر هذه المقابلة، وشعروا بأن فى الأمر سراً، وعاشوا فى بلبلة إلى أن انتخبت اللجنة التأسيسية مديرا للجريدة، محامياً لم ترض عنه الأمة، كما لم ترض عن الخطبة التى ألقاها أثناء محاكمة ضحايا دنشواى. وزاد من سوء ظن الناس بالجريدة ومديرها، ما تبرعت به التايمز (أهم الصحف البريطانية) من تقريظ لها قبل ظهورها. ثم كان إعلان أسماء محررى الجريدة، فقوى ظن الناس بأن هؤلاء من المحررين (وهم شاميون) لن يكونوا على المستوى المطلوب للدفاع عن قضايا مصر. ثم ظهرت الجريدة، وهى تحمل هنا الشعار : «من حقق النظر، وراض نفسه على السكون إلى الحقائق وإن آلمته فى أول صدمة، كان اغتباطه بذم الناس أشد وأكثر من اغتباطه بمدحهم إياه». يقول العقاد : (نفسه ٢٤٠، ٢٤١). إن صاحب هذه

العبارة التى اتخذتها الجريدة شعاراً لها منذ ظهورها فى مارس ١٩٠٧ إلى احتجابها بعد ذلك بنحو ثمانى سنوات هو الفيلسوف الأندلسى ابن حزم، وقد اختار مديرها هذا الشعار لأنه كان فى طوال هذه المدة يعلم أن معارضيه بالرأى أضعاف مؤيديه. وكان أنصار الأحزاب الأخرى أضعاف أنصاره فى حزب الأمة. وقد فارقه شطر كبير من هؤلاء الأنصار، فى حزب الأمة، فى منتصف الطريق وجنحوا إلى ناحية القصر احتجاجاً على ما سموه «استبداد مدير الجريدة بسياستها، وفيها ما فيها من مناصبة الأمير»(١).

وأعود إلى حكيمنا وجدى، وما كتبه حول هذا الشعار. قال «تساءل الناس : يا للعجب، جريدة مصرية، قام بإنشائها أعيان مصر لإثارة شعور المصريين وعواطفهم تصدر بهذا الشعار؟ هل نحن من الوطنية والدين على باطل فجاءت «الجريدة» لمنازعتنا فيه ؟ وتابع الناس أعداد «الجريدة» فطالعتهم مقالات فلسفية وصوفية .. مما يدخل فى خطط المجلات الأسبوعية والشهرية، لا الجرائد اليومية. هل مرت «الجريدة» بذكر الاستقلال ؟ كلا ؟. وقال قائلون : إن وراء الجريدة حزباً يهىء الأمة بالتعليم حتى تكون أهلاً للاستقلال! قامت الجريدة زاعمة أن الأمة طفلة غرر بها المتهورون، فآلت على نفسها لتفضحن أولئك المتهورين وجرائدهم. ألا إن الأمة واعية! لقد قصدت الجريدة أن تجذب الأمة فجذبتها الأمة، ورامت أن تهذبها فتبين لها أنها هى المحتاجة إلى التهذيب! وهكذا الأمم ، متى حَيّتْ أُحْيت، ومتى شعرت أشعرت !.

فى كتابى «الإسلام وحقوق الإنسان - دراسة مقارنة» طبعة ثانية (بنود ٦١-٧٣).

كتبت «عن المسلمين حين ينسون مبادىء الإسلام» ومما جاء تحت هذا العنوان كلمة عن الإقطاع وكيف كان حين انقطعت الصلة أو كادت بين الحكام المسلمين وبين مبادىء الإسلام : فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) أسرف المستبدون بشئون الخلافة العباسية (التى اعتراها الوهن) أسرفوا فى أمور الإقطاع فاقطعوا فضلاً عن البلاد والقرى - حقوق بيت مال المسلمين لأنصارهم وحواشيهم - يقول المقريزى (المتوفى ٨٤٥ هـ - ١٤٤١هـ).

إن أراضى مصر لعهده كانت تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده، وحتى الأملاك الخاصة والأوقاف تعرضت للإقطاع، بل إن هذا قد امتد إلى جميع موارد الدولة مثل الزكاة وغيرها.

---

(١) أقول : لقد كان (حزب الأمة) وكانت «الجريدة» وكان مديرها كما كان الأحرار الدستوريون فيما بعد وهم ورثة حزب الأمة وامتداده - كانوا مع الريح، مع السلطة الفعلية، مع الذين يملكون تعيين الوزراة والوزراء والموظفين، ويمنحون المال والجاه والرتب والألقاب أما تقييد سلطة الحاكم، أما الدستور، أما الاستقلال، فقد ناضل وضحى فى سبيل ذلك كله آخرون، الحزب الوطنى حتى عام ١٩١٩ ثم الوفد بزعامة زغلول ثم النحاس حتى عام ١٩٥٢.

وكان يحدث في كثير من الأحيان - على عهد المماليك أن يحل مقطع فى إقطاع غيره وفى داره وأثاثه، وأحياناً يتزوج من زوجته. يقول القلقشندى (٧٥٦ - ٨٢١ هـ) قاسى الفلاحون - فى ظل الإقطاع شر ما يقاسى إنسان مستعبد، وعبد مستذل. قال المقريزى : ويسمى الزارع المقيم بالبلد فلاحاً قرارياً، فيصير عبداً لمن أقطع تلك الناحية، إلا أنه لا يرجو قط أن يباع ولا أن يعتق، فهو رق ما بقى، ومن يولد له كذلك، وإذا هرب الفلاح فراراً من الظلم والقهر أعيد قسراً. وكانت دولة المماليك التى حكمت مصر وغيرها قروناً هى الدولة الإقطاعية الكبرى التى قامت بالشرق الأوسط. ومنذ الفتح العثمانى جرت الأمور على تمليك أرض الدولة لفريق من البطانة، وصاحبت ذلك أيضاً أعمال السخرة، وبالإضافة إلى الجبر والقهر، حرص الحكام - خلال ذلك ومعه على تدريب الناس على قبول الأمر الواقع ووسائلهم فى ذلك كثيرة، ومنها خطبة الجمعة. وقد حكم محمد على مصر حكماً مطلقاً ونظر إليها كأنها ملك خاص له ولذريته .. وفى اليوم التاسع من سبتمبر ١٨٨١ وفى ميدان عابدين بالقاهرة، جرى حوار بين عرابى (الفلاح المصرى)، وبين الخديوى توفيق (التركى) وتقدم عرابى باسم الشعب الذى يقف معه ومن ورائه - بمطالب . منها تشكيل مجلس نواب على النسق الأوربى .. وكان رد توفيق : كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها، وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائى وأجدادى، وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا. وأنا خديوى البلد، وأفعل ما أشاء!. فى هذا الزمان، وإلى فترات طويلة من قبل وحقب وسنين من بعد. كانت مصر وكان الأمر والنهى، وكانت المناصب الكبرى فيها لكل من هب ودب إلا أبناء مصر.

وصدق فى مصر ما قاله الشاعر : -

حرام على بلابلها الدوح ∴ حلال للطير من كل جنس[1].

أقول : من أين جاء هذا الوباء، بل الأوبئة التى تراكمت وتعددت بتعدد أجناس الحكام، ونوعيتهم الهابطة غالباً، والذين جاءوها من كل صوب، ومن كل فج عميق[2]. لقد استذل المماليك والأتراك الفلاحين، فلما تولى أمرهم فى القرى فلاحون منهم، استمروا فى قهرهم وامتصاص دمائهم، إلا من عصم الله ! وقد عاصرت هذا العهد فى الحقب الأولى من هذا القرن (العشرين) !.

وأعود إلى مصر، وإلى أواخر القرن الماضى، حين كانت الرتب الكبرى فى الجيش، والوظائف العليا فى الحكومة للأرمن ومن إليهم، أما المصريون فقد كانت محرمة أو شبه محرمة

---

(١) انظر فى كل ما تقدم كتابى سالف الذكر، والمراجع المشار إليها فيه.

(٢) هزم المصريون التتار (المغول) فى موقعة عين جالوت (١٢٦٠) وأوقفوا تقدمهم فى المنطقة لكن الأخلاق واللوائح المغولية (الهمجية) قد تسربت إلى مصر وغيرها على يد بعض الحكام منذ الزمن البعيد . والجبابرة من الحكام فى كل زمان ومكان (وفى مصر فى الماضى القريب) يختارون من السياسات ما يسند تحكمهم ويطيل فترة حكمهم، غير مبالين «بالآدمية والقيم الإسلامية والإنسانية».

عليهم. وقد كان هذا من أسباب ثورة عرابى (المفترى عليه) ! وكانت المطالبة بفتح باب الترقى للمصريين، ومساواتهم - فى بلادهم - بغيرهم أحد المطالب التى تقدم بها عرابى للخديوى فى يوم عابدين الشهير.

كان البيت المالك المصرى تركياً، وكان الأتراك ومن يلوذ بهم يتعالون على المصريين، ويأبون عليهم أن يحضروا مجالسهم، أو أن يكونوا أعضاء فى نواديهم، وكانت التركية هى لغتهم، وندر من يتعلم العربية منهم، كما كانوا يرفضون مصاهرتهم.

وعندما احتل الإنجليز مصر، وظهرت سلطتهم الفعلية على «السلطة الشرعية» (١). تهيأت الفرص لأسر وعائلات مصرية لنيل الرتب الكبرى والمناصب العليا، وظهر منافس (طبقى) من المصريين فى مواجهة الأتراك المستكبرين. ولكن هؤلاء المنافسين (الطبقيين) الذين ظهروا، ظهروا لأنفسهم وكانوا - إلا من عصم الله وما أقلهم - امتدادا لغطرسة الأتراك، وتعاليهم على الفقراء والضعفاء (وهم فلاحو مصر، والكثرة الكاثرة من سكانها). وفى نفس المعنى أو ما هو قريب منه يقول العقاد (نفس المرجع ص٢٢٨ وما بعدها) - لفت نظرى أن إمام الديمقراطية المصرية (يعنى لطفى السيد) يلبس «البونجور» ويحرص على السمت «الأرستقراطى» فى زيه وتقاليد سلوكه مع زواره ومرءوسيه. إنه «أرستقراطى» السمت والشارة فى مظهره ووجاهته. وإنه أيضاً «ديمقراطى» المبدأ فى تفكيره وسياسته. ولم تطل بى الحيرة للتوفيق بين الحالتين، لأننى لم ألبث أن شعرت من مراقبته ومراقبة الوجهاء من أبناء الفلاحين أنهم جميعاً ديمقراطيون : بمعنى أنهم ينكرون سيادة الطبقة التركية واستئثارها بشرف الوجاهة الاجتماعية، وقد كان الوجيه التركى يأبى على أكبر الوجهاء من الفلاحين أن يساويه أو يصاهره أو يتخذ من المظاهر الاجتماعية مثل مظهره .. إن ديمقراطية لطفى السيد ليست إلغاء للعرف الاجتماعى فى آداب الطبقات ولكنها ديمقراطية المساواة بين أبناء كل طبقة من المصريين وغيرهم من الغرباء.

فى كتاب «حياتى - لطفى السيد» (نفسه ص٣٩ وما بعدها) - أشار لطفى السيد إلى استقالته من النيابة عام ١٩٠٥ واشتغاله بالمحاماه مع صديقه عبد العزيز فهمى، لكنه ما لبث أن اعتزلها بعد أشهر لينصرف إلى السياسة. وتحت عنوان «أصحاب المصالح الحقيقية - فكرة إنشاء الجريدة» أنه تحدث فى حالة مصر مع صديقه محمد محمود باشا «وما يجب من إنشاء جريدة مصرية حرة تنطق بلسان مصر وحدها»(٢). وقد رأينا أن تكون هذه الجريدة ملكاً لشركة من الأعيان أصحاب المصالح الحقيقية(٣) الذين كان يصفهم لورد كرومر وغيره من الإنجليز

---

(١) بهذا تجرى الأقلام، وهو خطأ، والسلطة الشرعية فى الإسلام وفى بلاد الديمقراطية السياسة - هى سلطة الأمة أو الشعب، ولم تكن هذه كذلك.

(٢) ، (٣) تأمل وصفهم لأنفسهم بأنهم «أصحاب المصالح الحقيقية»، وكأن الشعب ومصالحه قد غاب كلية عن بالهم، وقصتهم السياسية أنهم - كانوا دائماً أو غالباً - لأنفسهم ! لدينا هم طلاب سلطة! وتأمل كذلك خطتهم بشأن الجريدة المزمعة، بأن تكون مصرية تنطق بلسان مصر وحدها فى الوقت الذى كانت فيه «المؤيد» ذات طابع إسلامى غالب، وكذلك «الدستور» أما جريدتهم فعالمانية بالمفهوم الغربى (فصل الدين عن الدولة).

بأنهم راضون عن الاحتلال .. وأن حركة المعارضة للاحتلال إنما يقوم بها من ليس لهم مصالح حقيقية فى البلاد كالشباب الأفندية والباشوات الأتراك. وكان رئيس الشركة محمود باشا سليمان (والد محمد باشا محمود)، ووكيلها حسن باشا عبد الرازق الكبير ..

وبعد تأليف هذه الشركة، أخذت الجرائد المتصلة بالخديوى عباس تتهمنا بأننا متصلون بالإنجليز .. وقد كان لهم عذر فى هذا الاتهام لأنه كان بين شركائنا فى «الجريدة» عدا الأعيان – طائفة من كبار الموظفين المصريين فى الوقت الذى سيطر فيه الإنجليز على الحكومة، منهم عبد الخالق ثروت باشا عضو لجنة المراقبة.

وظهرت الجريدة فى ٩ مارس ١٩٠٧، يقول العقاد (نفسه ص٢٣٦) كان حزب الأمة يضم فئة كبيرة من أصحاب الجاه والثراء فى البلاد، ولما أرادوا أن يكون لحزبهم جريدة حرصوا على أن تكون فى أوجه طراز من الصحف الفرنسية، واختلفوا زمناً على اختيار إحدى الصحيفتين الكبريين فى باريس مثالاً لصحيفة الحزب اليومية – وهما «الطان» و«الجورنال» – (الأولى تعنى «الزمان» والأخرى تعنى «الجريدة»)، وخرجت صحيفة الحزب بهذا الاسم الأخير، وظهرت على مثال «الجورنال» فى الصفة غير الرسمية، وفى نظام التحرير وفى ترتيب الصفحات. وأظهر ما كان فى هذا النظام فتح صفحات الجريدة للكتابة الأدبية بأقلام ناشئة الجيل .. وترددت على صفحاتها أسماء هيكل وعبد الرازق وطه حسين ومحمد السباعى وشكرى والمازنى والقاياتى والعقاد. وكان اللواء والمؤيد يتقبلان الكتابة بأقلام الناشئين إذا كانت سياسية، أما إذا كانت أدبية فلا مكان فيها إلا للشعراء والكتاب النابهين من طراز شوقى وحافظ ومطران والمويلحى والمنفلوطى وأمثالهم من الأدباء الكبار، ولذلك (والكلام ما زال للعقاد) اتجه الأدباء الناشئون إلى الجريدة، ولا سيما الطلبة والموظفون الذين كانت الكتابة فى السياسة محظورة عليهم.

يقول (لطفى السيد) «حياتى ص١٢٧» بعنوان : مصر والحرب التركية الإيطالية». أغارت إيطاليا على طرابلس (عاصمة ليبيا) (عام ١٩١١). فظننت أن هذه فرصة لتحقيق ما كنت أدعو إليه من أن مصر يجب أن تكون للمصريين، ويجب أن تبقى على الحياد. أقول : أى حياد (يا أستاذ لطفى) ؟! وأنت ترى أخاك فى العروبة والإسلام بل (وأخاك فى الإنسانية) معتدى عليه؟! أى حياد هو وأنت ترى إيطاليا الصليبية تجيش الجيوش لاغتصاب أرض عربية إسلامية ؟ ثم ماذا تقصد بمصر التى يجب أن تبقى على الحياد؟ إن مصر الرسمية، التى كانت تحتلها بريطانيا وقتئذ، لم تقف على الحياد فحسب، بل إنها فى وقت لاحق، وبعد أن احتلت إيطاليا ليبيا (التراب الغالى على كل مصرى وعربى ومسلم) اقتطعت واحة جغبوب المصرية وقدمتها لإيطاليا هدية ! أما شباب مصر الواعى، فقد ترك بعضه مقاعد الدراسة وتطوع للوقوف مع إخوانه المسلمين لصد الهجمة الإيطالية الوحشية.

وتقول «يا أستاذ لطفى» إن موقفك قد أغضب بعض الناس، لكنك لم تلتفت إلى غضبهم». وأقول : إن الذين غضبوا لم يكونوا بعض الناس، بل كل الناس، كل الشعب الذى ثار عليك.

أقول : أشار الأستاذ العقاد (نفس المرجع ص٢٥٠) إلى أن لطفي السيد كان أرسطياً، قبل أن يعرف أرسطو أو يفكر في ترجمته .. حتى أنه كان يتحدث عنه متبسطاً فيسميه «سيدنا أرسطو رضي الله عنه». أقول:

إن المسلمين ومنذ وقت مبكر، وخاصة في العصر العباسي الأول، وفي عهد الرشيد والأمين والمأمون بالذات – انفتحوا على أرسطو ومن قبله ومن بعده، وعلى كل الفكر الإنساني في المشارق والمغارب، كذلك كان المسلمون وما زالوا حتى اليوم، وفي حدود علمي لم يسبغ أحد منهم عليه ولا عليهم الولاية «والكرامة» وما يتبعها من الأفعال الخارقة للعادة إلا أنت يا أستاذ لطفي !.

في يناير عام ١٩٨٩ كنت أحد أعضاء المؤتمر الإسلامي الثاني للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية الذي عقد في بغداد، وبعد اجتماع بصدام حسين في مدرج بقصره، وحيث كانت الكلمات والخطب، وقف ليسلم على أعضاء المؤتمر واحداً واحداً، وحين جاء دوري قلت له : لقد كانت بغداد عاصمة الدنيا ومركز الحضارة والعلم لمدة قرون، وكانت بغداد لكل المسلمين.

فرد فوراً : «بغداد لكل العرب»(١). فإذا كان صدام حسين في نهايات القرن العشرين قد أبى أن تكون بغداد لكل المسلمين، فقد أبى الأستاذ لطفي السيد في بداية القرن أن تكون مصر لغير المصريين، أي أنه ليس بينها وبين المسلمين والعرب وشائج يتبادلون تحت رايتها العون في السراء والضراء !

لقد غفل المرحوم لطفي السيد من قبل، وغفل صدام من بعد – لقد غفلا أو تغافلا عما بين العرب والمسلمين كل العرب والمسلمين من روابط ووشائج. وأقوى هذه الروابط والوشائج هي الأخوة في الله. إن المسلم أخو المسلم، ومهما مكر الماكرون في الداخل، تحت ستار العالمانيه أو غيرها فالشعوب بفطرتها إسلامية، والإسلام دين الفطرة. والله ينصر من ينصره. والنصر – في القريب للشعوب – وأضيف إلى هذه الإشارة إلى حكام منا من قاهري الشعوب – أضيف مواقف لبعض الدعاة من المتجرين بالدين. ومن هذه المواقف ما كان يوم اللقاء بصدام، لقد استبد «الهيام المصطنع» بالبعض (بعض الخطباء)، فانفلتوا نحو صدام يغمرونه بالأحضان والقبلات، ويهدونه في زهو بعض كتبهم ! يا لها من مأساة حين يقف أمثال هؤلاء الدعاة لتأييد الطغاة، وعلى هذا النحو من التأييد المضحك المبكي !

وأزكي هذا البند بهذين الحديثين الشريفين : عن أبي موسى قال : سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، فأي ذلك في سبيل الله؟ فقال : «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» (رواه الجماعة). وعن أبي أمامة قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر، ماله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا شيء له» فأعادها ثلاث مرات، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا شيء له» ثم قال : «إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتُغي به

---

(١) وانظر للمؤلف : «صفحات من اليوميات» (مؤتمر بغداد ص١٢٤ وما بعدها).

وجهه» (رواه أحمد والنسائى) (وانظر للمؤلف ص٧ من كتاب «الإسلام وحقوق الإنسان - الجهاد» (١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩م).

هذا وانظر الأعلام للزركلى جـ١ ص٢٠٠ عن «لطفى باشا» (١٨٧٠ - ١٩٦٣م) (انظر فيه الوظائف والمناصب التى شغلها والكتب التى ترجمها).

الصحافة المصرية بحث انتقادى

(٢٨)

تحت هذا العنوان - كتب المرحوم وجدى سلسلة من المقالات. وهذه الحلقة منها عن جريدتى «الوطن ومصر» (الدستور - عدد ١٩٠٧/١٢/١٣) - والجريدتان - كما يقول وجدى - تتكلمان بلسان الطائفة القبطية، وهما مسالمتان لدولة الاحتلال. ونحن (والكلام لوجدى) لا نصدق أن الأقباط عامة على مذهبهما. وفى ذات المقال يشير وجدى إلى أن جريدة مصر لم تحسن استقبال الدستور«ذى اللهجة المتطرفة». وكان الدستور قد نشر بتاريخ ١٩٠٧/١١/٢٥ بعنوان «الدستور وجريدة مصر» أن هذه الأخيرة قالت : إننا عرفنا بالاختبار والتجربة أن أكثر الجرائد التى تنشأ فى مصر هذه الأيام تبدأ متحمسة كسباً لرضى القراء، وإشهاراً لاسمها، وترسيخاً لوجودها، فإذا ما حققت بغيتها فى حدود المصلحة الشخصية، عادت ركشفت عن مقاصدها والركون إلى حقيقة الأوضاع السياسية فتجارى المؤيد والجريدة والمنبر والظاهر فى مبادئها (مبادىء الاعتدال) والاعتدال فى ذلك الوقت يعنى عدم مناوأة دولة الاحتلال. وبعبارة أخرى تجنب الاتهام بالتطرف (وكل مطالب بالجلاء متطرف). على أنه إذا خاب الظن فى الدستور كما خاب من قبل فى اللواء[1]. فعزاء البلاد قائم على أن التطرف لازم لإحياء الاعتدال، فكثيراً ما يحدث أن لا تنشأ الحقائق إلا من وراء الأوهام!.

كيف كان رد وجدى على هذا اللمز والتجريح لجريدته الناشئة «الدستور» ؟ بدأ وجدى ففند ما جاء فى هذا الهجوم عليه ثم قال : إذا عُدَّ الشعور بالحق الطبيعى والسعى فى الحصول عليه (أى على الاستقلال)، والتصريح بطلبه «وهما» واعتبر الاستسلام وقتل أشرف العواطف، وهى عاطفة الكرامة الذاتية «حقيقة» فقد تبدلت إذن سُنن الخليقة - وانعكست نواميس الاجتماع. والأمر بعد ذلك لله!

وأقول : إنه مما يشير إلى نزاهة الدستور وحيدتها واحترام الجميع لها أن «الشبيبة القبطية» نشرت فيها خطاباً مفتوحاً إلى جريدتى الطائفة (الوطن ومصر) تناشدهما ترك الشقاق بينهما (الدستور عدد ١٩٠٧/١٢/١٣).

---

(١) وهذا يعنى أن جريدة مصر تعلم علم اليقين «أن الدستور واللواء» كليهما لم يكونا من الذين يتكلفون الحماس لأسباب شخصية، وإنما كان الحماس نابعاً من أعماقهما وصدق لهجتهما ونبل أغراضهما، كما تعلم علم اليقين أن ما يوصفان به من تطرف (وهو طلب الجلاء) هو قمة مطالبهما

(٢٩)

بالعدد المؤرخ ١٢ من ربيع الأول عام ١٣٢٦هـ (١٣/١٢/١٩٠٧م) وبالصفحة الأولى (المقال الافتتاحى) - نشر الدستور تحت عنوان «المؤيد فى نظر العقلاء» بتوقيع ع.م. الدرى) مقالاً من عمودين وبعض العمود الثالث. والمقال - فى جملته إشادة بالمؤيد وصاحبه، وهجوم على الدستور ومديره المسئول. نعى الكاتب على هؤلاء الذين يتنكرون للمؤيد، وكأنهم نسوا - أو تناسوا كفاحه وتضحياته، وخاصة فى السنوات الأولى من عمره. إن المؤيد هو أول صحيفة يومية إسلامية. ولقد كان وما زال الصحيفة الأثيرة لدى الطبقة الراقية ومضى الكاتب وحمل حملة عيفة على صاحب الدستور، ورماه بما هو منه براء. ثم يتساءل الكاتب : كيف تنسبون إليه الجبن والرياء، وترمونه بكل رذيلة، وتجردونه من كل فضيلة؟ وإن نسبْتُم إليه غلطة فلن تجدوا إلا «مسألة الزوجية» وهذه مسألة شخصية، وقد خرج الرجل منها منتصراً. ثم يمضى الكاتب ويقول لصاحب الدستور : تدعون أن الرأى العام ساخط عليه، فكيف ذلك وهذا هو المؤيد لم يزل أغزر الجرائد مادة، وأوسعها انتشاراً، وكفى المؤيد فخراً أنه كان وما زال المجال الذى يفضله للنشر فيه كبار الكتاب كالسيد البكرى ومحمد بك المويلحى والدكتور شميل .. وأنت نفسك - يا صاحب الدستور - رغم عدائك له قدرت قيمته بخمسين ألفاً من الجنيهات! وها أنت الآن تتنكر له لشىء فى نفسك ! ما لك تفسح فى صدرك وجريدتك للطعن عليه .. إلى آخره.

يرد وجدى فى أربعة أعمدة (عمودان كاملان وعمودان إلا قليلاً فى كل منهما) (لقد جعل الصدارة لكلمة الناقد، ثم جاء التعقيب بعد! وواضح لى أنه لم يحذف كلمة مما ورد إليه). وفى الرد يبدأ وجدى بالإشادة بجهاد المؤيد ومقاومته للقوى المعادية له، ثم يقول :

إنى من أعرف الناس بقدر المؤيد(١). لكن هذا كله شىء، والتحول من مبدأ إلى مبدأ شىء آخر! كان المؤيد عدو الاحتلال الألد، والخطر الأكبر عليه، وكان كرومر رمز الاحتلال - يخشى قوته، وكان يرمى أشياعه بالهوس. وقد فكر كرومر فى نفى صاحبه .. والآن تغيرت الحال، وصار صاحب المؤيد - فى نظر كرومر - زعيم الاعتدال ! وذا حظوة لدى دولة الاحتلال ! أما مسألة الزوجية، فلم أتعرض لها قط، لأنى لا أتعرض للمسائل الشخصية. ويخاطب الناقد قائلاً : لو شرفتمونى فى إدارة صحيفتى لأريتكم المقالات والكلمات التى ترد إلىّ، وأعتذر لأصحابها عن عدم نشرها لمساسها بشخصية الرجل. ويضيف قائلاً : إن الرأى العام - أو أكثره - ساخط عليه. ويستحيل أن تجتمع الأمة أو أكثرها على ضلالة(٢)!

---

(١) من المعروف أن وجدى - قبل ظهور الدستور - كان يؤثر المؤيد بنشر أبحاثه ومقالاته فيه.

(٢) فى هذا اقتباس من حديث شريف.

ويعود ويخاطب الناقد الساخط قائلاً : أراكم تغلطون فى تحديد الطبقة الراقية كما تخلطون بين الكتابة فى جريدة والموافقة على سياستها. و«مصباح الشرق» (جريدة المويلحى) تشهد أعدادها بالخلاف الكبير بين المويلحى وصاحب المؤيد فى المبدأ. والبكرى - مثل المويلحى - لم يسلم هو الآخرمن لسانه. أما شميل فهو أبعد الثلاثة مذهباً عن صاحب المؤيد.

الصحافة المصرية - وتميز الدستور

(٣٠)

هذا بعض مما جاء فى مقال افتتاحى بتوقيع (العربى) عن «الصحافة المصرية» (الدستور العدد ٤١ فى ٣/ ١/ ١٩٠٨). قال : «.. إن قارىء الدستور يرى فيه خلالا لم تجتمع لغيره : فمن متانة فى التركيب وبلاغه فى الأسلوب إلى كياسة فى السياسة. ومن إصلاح فى الدين، إلى الضرب بسهم كبير فى العمرانيات، إلى دعوة إلى الترفع عن السباب. وتعجبنى كلمة الدستور عن إعلانه عن نفسه، إذ قال : «إن الدستور لم يجىء ليسد فراغاً فى الصحافة، ولكن ليتعطر بعبقة من العلم الاجتماعى» «إنى لم أجىء لأسد فى الصحافة نقصاً، أو أن أرتق فتقاً».

ويقول الكاتب : ومنذ أعوام عشرة وأنا أقلب الصحف المصرية، فلم أر واحدة فطنت (لمحاربة المادية)، لولا ما كانت تأتينا به «مجلة الحياة» (لمدير الدستور) من آيات علم ما وراء المادة. هذا السلاح - الذى قام يناضل به الدستور أعداء الدين والروح - هو خير ما ظفر به المسلمون - وغيرهم من المنتمين إلى الديانات السماوية الأخرى - فى دفع عادية المادية عن هذه الأديان وتأكيد خلود الروح.

أقول : هذا الذى ذكرت، وهو ما نقلته عن كاتبه - بإيجاز يؤكد ما عرف عن الدستور ومديره من الترفع والتفرد بين الصحف المصرية. إنها المبادىء التى ألزم بها المرحوم وجدى نفسه، فى الدستور، وقبل الدستور وبعده، وإنها الدعوة إلى الله، وإلى الفضائل الإسلامية والإنسانية.

الجـرائـد والأمــة

(٣١)

سبق أن نقلت ما كتبه وجدى فى الدستور عن «الجريدة والمؤيد». وهنا أشير إلى مقال بعنوان «الجرائد والأمة» (بتوقيع محمود هنو) عدد ٤٤ المؤرخ فى ١٩٠٨/١/٦ ومما جاء فيه «مالنا نرى المؤيد واللواء – وهما عميدا الصحافة المصرية – قد جعلا بأسهما بينهما، حتى كأن الصحافة – كل الصحافة – ليست سوى قضية الزوجية، أو التهور فى الوطنية. يقول الكاتب : لقد قرأت برنامج حزبيهما، فلم أر ميزة لأحدهما على الآخر، فلم يبق عندى شك فى أن سبب العداء شخصى محض. ويضيف :

علمت أن سبب العـداء هو التزاحم على الصدارة (بتصرف).

أقول : هكذا كانت حال الجرائد المصرية الكبرى (الجريدة واللواء والمؤيد) حين ظهر «الدستور» الذى أخذ على عاتقه الدعوة إلى الاتحاد، وإلى التمسك بالدين ومكارم الأخلاق، وإحلال عفة اللسان محل التنابز بالألقاب.

وأقول : أما عن التهور فى الوطنية فهو إشارة إلى ما درج عليه المؤيد من وصف اللواء والحزب الوطنى بهذه الصفة، وما درج عليه صاحب المؤيد من تلقيب مصطفى كامل «بالطائش». أما قضية الزوجية فهى قضية لاكتها الألسن، ونظرتها المحاكم، وتابعتها الصحف، وأثارت اهتمام الناس بها فترة طويلة من ذلك العهد (العقد الأول من هذا القرن). وخلاصتها زواج الشيخ على يوسف (صاحب المؤيد) من كريمة الشيخ السادات، وطعن أبيها فى هذا الزواج لعدم الكفاءة .. فالعروس من بيت السادة الأشراف. والزوج – فى نظرهم – من عامة الناس. ولم يشفع له أنه يحمل رتبة الباشوية : كما أسند إليه منصب «سيد السادات – شيخ الطريقة الوفائية الصوفية» (وقد اعتزل الشيخ «على» مهنة الصحافة بعد ارتقائه لهذا المنصب، الذى يسر له الحصول عليه ماله من مكانة عند ذوى الأمر والنهى). (ويرجع فى ذلك إلى رجال عرفتهم – للعقاد ص١٦ – ٣٨).

وأعود وأقول : لقد كانت صحيفة «المؤيد» لصاحبها ومديرها الشيخ على يوسف – إحدى الصحف الكبرى لعهدها، وكانت إلى جانب مميزاتها المستمدة من كياسة صاحبها وحذقه، تهتم بالدراسات والمسائل الإسلامية كما أنها كانت على مدى السنوات السابقة على «الوفاق» بين الخديوى ودولة الاحتلال كانت تقف فى صف واحد مع اللواء والدستور فى مناهضة هذا الاحتلال. لكن المؤيد وصاحبه كانا دائماً – قبل الوفاق وبعده – فى خدمة الخديوى وحاشيته. وأذكر هنا هذه الواقعة! كان الخلاف والضيق قد اشتدا بين الخديوى وحاشيته وبين الأستاذ/الإمام الشيخ «محمد عبده» مفتى الديار المصرية. وكان الشيخ فى زيارة لعاصمة الخلافة .. (الآستانة) فاصطحبه وكيل المؤيد بها – تطوعاً – لرؤية معالم المدنية، ولكنه أقحم

الشيخ (الغريب على المدينة) «من مواطن الفرجة ما يتحاماه أمثاله ويتواطأ بذلك مع رؤساء الشرطة ليفاجئوا الشيخ والوكيل بين مواطن الريبة.. ثم ينتهى الأمر إلى «وصمة شائنة» تصيب الشيخ فى دار الخلافة الإسلامية، فلا يشق على الخديوى بعد ذلك أن يعزله من مناصبه الدينية برخصة من مقام الخليفة الأعظم، ويتراجع أمامها مجلس الوزراء فى مصر، فلا يعتبر عزل المفتى فى هذه الحالة إخلالا بنظام العزل والتوظيف» (العقاد نفسه ص١٨)، هذا شىء مما ذكره العقاد عن الشيخ على. وضد من؟ ضد شيخ فقهاء هذا العصر ومجتهديه، ضد المصلح العظيم الذى ستبقى سيرته منارا تهتدى به الأجيال، ويبقى اجتهاده نبعاً لا ينضب على مدى القرون.

ثم ماذا يقول العقاد؟ (نفسه ص٢٤) يقول : «وتشاء الأقدار لهذا الرجل العصامى أن تسلبه كثيراً كما وهبته كثيراً. لقد غامر فى طلب الحب، كما غامر فى طلب الكسب فلم تكتب له السعادة فى هذا ولا ذاك. لأنه شقى بالحياة الزوجية التى حسبها غاية الأمل نعمة وشرفاً. وشقى بالمال الذى اقتناه فضاع كله بين عثرات الجد وعثرات الطموح والإقدام!.

وبعد : ففى سيرة الشيخ عظات لهؤلاء الذين يشترون الحياة الدنيا بالآخرة. إن الدنيا - مهما طالت ومهما أعطت فمتاعها قليل. «والآخرة خير لمن اتقى» (٧٧ - النساء). «والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير مردا» (٧٦ - مريم).

العفو عن مسجونى دنشواى

(٣٢)

تحت عنوان «العفو عن مسجونى دنشواى» كتب الدستور (بدون توقيع وهذا يعنى أن الكاتب مدير التحرير) كتب نحو ثلاثة أعمدة (بالصفحة الثانية) (العدد ٤١ - المؤرخ ١٩٠٨/١/٣) قال : ذكر المؤيد أمس نقلاً عن الديلى ميل الإنجليزية - أن «السيرجراى كان ميالاً إلى العفو عن هؤلاء المسجونين من زمن بعيد لولا ما أظهره أنصار الحزب الوطنى فى مصر من التهييج». يقول الدستور ما خلاصته(١) :

---

(١) تحت عنوان «حادثة دنشواى» خصص المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى ٢٦ صفحة من كتابه «مصطفى كامل باعث النهضة الوطنية» (العدد ٢٠ من كتاب الهلال - نوفمبر ١٩٥٢ ص٨٩ وما بعدها) وهو كما جاء فى المقدمة موجز لكتاب آخر له بنفس العنوان) - وملخص الحادثة أن بعض البريطانيين من ضباط وموظفين أخذوا فى صيد الحمام بالبنادق فى بلدة دنشواى منوفية) (يونيه ١٩٠٦) اقتحم بعضهم أجران القمح، وبدلاً من أن يصيبوا الحمام أصابوا إمرأة خطأ، كما أشعل الرصاص النيران فى الأجران. هاجت القرية. ونشبت معركة بين الضباط المدججين بالأسلحة النارية، والأهالى العُزل إلا من العصى والحجارة. أصيب عدد من الأهالى واستشهد أحدهم كما أصيب أحد الضباط الذى تبين من كشف الطبيب الشرعى =

١ - إن المؤيد نقل هذا ولم يعقب عليه ولم يوضح أن العفو من حق الخديوى.
٢ - ما فعله مصطفى كامل من رفع عرائض إلى الخديوى بطلب العفو موقعاً عليها من اثنى عشر ألفاً عمل منظم وليس تهييجاً.
٣ - هذا العمل هو الذى حمل إنجلترا على اتخاذ هذا الموقف. وإذا كان المؤيد يريد أن يخدم حزبه بهذه المغامز، فالأمة كلها - من ناحية العاطفة الوطنية - حزب واحد، وأعضاء الحزب الوطنى، وأعضاء حزب الإصلاح كلهم إخوان.
٤ - الواجب هو الاتحاد. وليعلم المصريون أن إجماعهم قوة لهم، وهو الذى يرغم أعداءهم على النزول عند إرادتهم.

وليعلموا أنهم إذا أظهروا مشاعرهم الإجماعية فى كل مناسبة، فلن يستقر للحكم المطلق قدم «سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً» (٦٢ - الأحزاب).

أقول : إن النقاط التى اختزلت بها مقال صاحب الدستور بشأن العفو عن مسجونى دنشواى، واضحة وقوية فى التمييز بين موقفين : موقف صاحب المؤيد، وموقف صاحب الدستور. فالأول يغمز غمزاً ماكراً، إذ يشير إلى أن الإنجليز كانوا قد هموا بالعفو عن هؤلاء المسجونين، لولا سياسة الحزب الوطنى الطائشة، التى تضر ولا تنفع. ويرد عليه وجدى بأن الإنجليز ما كانوا ليفعلوا لولا العرائض وما عليها من آلاف التوقيعات. وهذا عمل حكيم من أكثر من وجه. فالعرائض رفعت إلى «صاحب الحق الشرعى» وليس للمغتصبين الإنجليز. ثم إن العرائض عبرت عن إجماع هز الطغاة هزاً. إن التمزق ضعف، وإن الاتحاد قوة. والشعب أى شعب، رجل واحد، وقول واحد ضد أى مستبد به، ولن تقوم للحكم المطلق قائمة، ولن يستقر، ولن يستمر، أمام الاستنكار العام، وهو ما يسمى (بالعصيان المدنى). وقلت وأقول : إن غاندى قد نجح فى اتباع هذه السياسة ضد الاستعمار البريطانى للهند، ونجح السودان فى إسقاط الحكم العسكرى مرتين فى عامى ١٩٦٤ - ١٩٨٥م.

=
(وهو انجليزى) أنه مات لا من أثر الإصابة ولكن من «ضربة الشمس» - هاج الإنجليز وماجوا - وبعد تحقيق سريع ومحاكمة صورية قضى بإعدام البعض. وبسجن كثيرين لمدد متفاوتة ونفذ الإعدام بسرعة وفى نفس القرية. وكانت ملابسات الحادثة والقضية مثيرة ومأساوية وهاجت مشاعر الشعب وقام ابن مصر البار مصطفى كامل بإثارة الرأى العام الأوربى (وفى انجلترا نفسها) ضد الحادث وضد الحكم الإنجليزى فى مصر. وقد كتب المرحوم الرافعى عن نتائج الحادثة تحت العناوين التالية : (ص١٠٥ وما بعدها من نفس المرجع)
١) اشتد اتساع الحركة الوطنية. ٢) اهتمام الصحف العالمية بالمسألة المصرية.
٣) تغيير سياسة الاحتلال.
٤) تأسيس الجامعة المصرية ٥) تعيين سعد زغلول وزيرا للمعارف ، ٦- استقالة لورد كرومر.

الدستور والخديوى

(٣٣)

كتب الدستور بعنوان : «تصريحات جديدة للجناب العالى عن مصر والحزب الوطنى» (عدد ٤٢ فى ١٩٠٨/١/٤) كتب مقالاً خلاصته أنه (أى الخديوى) صرح لمراسل الديلى تلغراف.. «مُظهراً أسفه الشديد على الميل الذى يظهره بعض شباب مصر للتخلص من كل وصاية دون أن يبحثوا عن إصلاح وطنهم بالوسائل المشروعة. ويقول «الدستور» : إنه يتردد فى تصديق هذه التصريحات على هذه الصورة ثم يقول: فهل نسمح لأنفسنا بتصديق هذه الرواية ضد حزب اكثر قواه منصرفة لإرجاع حقوق سموه المسلوبة إليه؟ ولو فرضنا البعيد وقلنا إن سموه رأى بقاء الوصاية الأجنبية على الحكومة .. فالذى يجب أن يُعلَم أننا فى عصر يقضى على الأمراء باتباع أميال الأمم وإن خالفت أميالهم الشخصية .. ثم مما يجب أن يُعلم أن الأمة المصرية تدافع عن حقوق الخديوى، لا بصفة أن تلك الحقوق من حقوق الخديوى نفسه، بل بصفتها من حقوقها هى !.

أقول : بلباقة وأدب جم يضع الدستور النقط فوق الحروف على حد التعبير الشائع – إنه يراجع الخديوى بشأن تصريحات ما كان ينبغى أن تصدر منه، ثم يذكره بأن الأمة تناضل من أجل إرجاع حقوقه إليه، لا باعتبارها حقوقاً شخصية له، ولكن لأنها حقوق الأمة يمارسها بوصفه ممثلاً لها، وفى الحدود الموكولة إليه.

وفى العدد ٤٥ المؤرخ ٧ يناير ١٩٠٨ نشر الدستور كلمة «لمحمد حسين طه» يأخذ على الدستور فيها ما كتبه حول تصريحات الخديوى (مما سبق ذكره). وكان رد الدستور : «ليعلم حضرة الأخ أن الدستور لم يختر لنفسه خطة الحياد – مع أن صاحبه من الحزب الوطنى – إلا ليخرج إلى بحبوحة الحرية، وعدم التقيد بالتقاليد التحزبية. ويتبين من هذه الفقرة الأخيرة أن الدستور وصاحبه كانا – دائماً فوق الأحزاب والأطراف، ولو كان هذا الطرف هو الخديوى نفسه. لقد اختار موقف الحياد من الأحزاب – لأنه آثر الحرية. وبئس التحزب إذا كان على حساب الحرية! إنه هو فى مواجهة القوة والكثرة، وما أكثر ما واجه القوة والكثرة! لقد كان الخديوى قوة، وقد واجه «وجدى» و«الدستور» هذه القوة باسم الحق، والدستور. كما واجه الكثرة التى كان يمثلها وقتئذ الحزب الوطنى. وفى «رجال عرفتهم للعقاد» (ص٥٤) أن الأستاذ وجدى كان أحد الأعضاء الذين دعوا إلى تأسيس الحزب الوطنى قبل وفاة مصطفى كامل ببضعة أشهر. فلما انتهى رئيس الحزب من عرض برنامجه، اقترح إرسال تبليغ بالبرق إلى وزارة الخارجية البريطانية لإعلانها بتأليف الحزب ومطالبتها بالجلاء فأقره الأعضاء جميعاً على اقتراحه ما عدا الأستاذ وجدى الذى كان من رأيه أن يُعمِّم إرسال التبليغ إلى جميع الدول دفعاً لشبهة «المركز الخاص» الذى تدعيه بريطانيا العظمى باحتلالها هذه البلاد. فأبى مصطفى

تعديل اقتراحه، وأصر على طلب قبوله بالصيغة التى عرضه بها على الأعضاء، وكاد أن يقاطع صاحب الدستور، فلم يتبادلا الزيارة بعد ذلك»[1].

إنه وجدى، إنه الرجل الذى واجه اكبر قوة سياسية فى مصر وقتئذ. (مصطفى كامل والحزب الوطنى الذى كان عضواً فيه). إنه الرجل «المترفع الشامخ» بالحق وللحق. والحق فوق الجميع[2]. وكان من صفاته الوفاء، الوفاء للأحياء والأموات. فلما توفى مصطفى كامل خرج صاحب الدستور من قطيعته، ورثاه بمقال حزين جعل عنوانه «مال أكبر رأس فى مصر – إنا لله وإنا إليه راجعون».

الحزب الوطنى

(٣٤)

بالعدد ٤٣ المؤرخ ١٩٠٨/١/٥ من الدستور وتحت عنوان «الحزب الوطنى» كتاب «لمحمود حمدى» من الحزب الوطنى – يشير إلى موقف الدستور إزاء المويد فى موضوع «العفو السالف الذكر» فى البند ٣٢. وفى الكتاب أن صاحب المؤيد لا يترك فرصة إلا ويناوش سعادة مصطفى باشا كامل لأمور تافهة .. ويعقب الدستور على ذلك بأن السبب فى فساد أخلاق القادة راجع إلى الأمة فى حقيقة الأمر، فإن الأمة إذا كان لها رأى عام قوى، تنافس قادتها فى التحلى بمكارم الأخلاق خشية السقوط .. والأمة التى تتألم ولا تظهر ألمها تفسد بذلك رجالها وحكومتها معاً. وقد شوهد أن بعض القادة قد ادعى الألوهية لاستخفافه بمن دونه من الناس. والقائمون على تحرير الصحف، هم وكما يجب أن يكونوا إنما يكتبون باسم الأمة ومن أجلها. وإذا كان على الأمة أن تؤاخذ عمالها إذا انحرفوا فعليها وبنفس القدر والمسئولية – أن تؤاخذ المنحرفين من صحفييها!.

الأحزاب

(٣٥)

تحت عنوان «حوادث وأخبار عدد ٤٦ من الدستور فى ١٩٠٨/١/٨ كتب المتيم (عضو فى الحزب الوطنى) – عن قيام الأحزاب وقيمة ذلك إلى صاحب المؤيد (وهو فى نفس الوقت رئيس حزب الإصلاح على المبادىء الدستورية) فلم يرد عليه فطلب الرد من

---

(١) وقد سبق ذكر هذه الواقعة بالبند ١٩.

(٢) لسعد زغلول عبارة مشهورة قالها فيما بعد تتخذها صحيفة الوفد شعاراً لها واتخذتها أخرى قبلها وهى : «الحق فوق القوة – والأمة فوق الحكومة» وقد جسد وجدى نفسه – ضمن ما جسد من فضائل – مضمون هذه العبارة.

صاحب الدستور الذى كتب بتوقيعه رداً جاء فى نهايته «ولكن الأمة المصرية اليوم وبعد قيام الأحزاب الثلاثة رسمياً - وفى وقت واحد تقريباً)(١). تستطيع نيل أكثر المطالب إذا سلكت سلوكاً حسناً فى المطالبة، ولم تصغ إلى شياطين السياسة ليضرب بعضها بعضاً .. ونحن هنا ننصح كل غيور على الأمة ألا يسىء ظنه بالأحزاب وغاياتها فليس بينها واحد يضمر الخيانة للبلاد ولا السوء لأهلها. جمعنا الله على كلمته العليا. وحمانا من أهوائنا.

أقول : لا شك أن قيام الأحزاب فى ذاته خطوة كبيرة فى سبيل الحرية والديمقراطية والحياة الدستورية. والأحزاب هى السمة الأولى للديمقراطية فى أوربا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية ومن نحا نحوهما كما فى الهند. ولا ريب أنها (أى الأحزاب) (وحتى فى الظروف التى كانت تعيشها مصر عند قيامها) - كان فى إمكانها إذا اتحدت كلمتها، ولم تصغ إلى شياطين السياسة أن تصنع الكثير لبلادها. وهناك شعار جديد بالاعتبار فى مثل هذه الأحوال : «نتعاون فيما نتفق فيه، ويعذر بعضنا بعضاً فيما نختلف عليه. لكن الذى حدث فى ذات الفترة هو اتفاق القصر والإنجليز هو فرض وصاية أو شبه وصاية على الأمة وأحزابها. وفى الربع الثانى من هذا القرن وعقب صدور دستور ١٩٢٣ استطاعت الجهتان السابق ذكرهما - اصطناع أحزاب وزعماء لتحقيق مآربهما. وقد حكم هؤلاء وهؤلاء مدة أطول مما حكم الوفد (وكيل الأمة وصاحب الأغلبية الساحقة). وكان هذا على حساب مصر وشعب مصر!.

وفى ختام هذا البند أشير إلى ما جاء فى نهاية ما نقلته عن وجدى حيث يقول : «ونحن هنا ننصح كل غيور .. إلى آخره». وأعلق على ذلك قائلاً : لقد كان الرجل الطيب الطاهر يحسن الظن بالآخرين. إنه يفصح بذلك عن نقاء سريرته وسلامة طويته!.

«الجريدة» وربيبتها «السياسة»
«وحزب الأمة» وخليفته «حزب الأحرار الدستوريين»(٢)

(٣٦)

بالعدد ٤٧ المؤرخ ١٩٠٨/١/١٠م، وتحت عنوان «حوادث وأخبار - هل نحن متطرفون؟» - كتب «وجدى» فى الدستور (مقالاً من نحو أربعة أعمدة بالصفحة الثانية) قال فيه : «عقدت الجريدة فصلاً افتتاحياً بتاريخ ١٩٠٨/١/٨ تحت عنوان «واجب المصرى إزاء المنازع

---

(١) المقصود : الحزب الوطنى وحزب الأمة وحزب الإصلاح على المبادىء الدستورية.

(٢) لقد عاصرت هذه الفترة. ولا أعدو الصواب إذا قلت : إنهم كانوا أحراراً فى انتهاك الدستور وحقوق الإنسان. وأسأل الله أن يهىء لى الأسباب وأحقق واحدة من أعز الأمانى، وهى كتابة دراسة بعنوان «مصر والدستور - تاريخ ومواقف».

السياسية» ذكرت فيه منازع كل حزب سياسى فى مصر، وبعد نقل فقرات من مقال «الجريدة» قال : يظهر من هذه الفقرات جلياً أنها تعتقد بوجود متطرفين، وتقصد بهم رجال الحزب الوطنى. وبعد كلام ممتع ومستنير لوجدى - حول معيار التطرف والاعتدال، واستخدام هذا الاصطلاح فى الغرب. لام الكاتب هؤلاء الذين يستخدمون اصطلاح التطرف فى الجرائد المصرية ويقصدون به «طلاب الاستقلال» ويشير الكاتب إلى أن الصحف الغربية (وهى غير منصفة) تصف هى الأخرى «طلاب الاستقلال» بأنهم متطرفون. فى حين أنها لا تخفى إعجابها بطلاب الاستقلال - بقوة السلاح - فى اليونان وغيرها. وفى أدب جم ينتقد مسلك الجريدة ومن نحا نحوها قائلاً: «يقول أولئك إن الاستقلال لا ينال إلا بعد الاستعداد له بالعلوم والمعارف. ويغيب عنهم أن هذا الكمال الاجتماعى تنشده الأمة مثلهم، وتعرف أنه لا يتم لها مع وجود الاحتلال، فانظر كيف يعلقون الاستقلال على ما لا يتم إلا بالاستقلال. فليذكر هؤلاء أن اليونانيين نالوا استقلالهم وليس فيهم واحد فى المائة يحسن القراءة. وينتهى الكاتب إلى أن الذين يدعونهم متطرفين هم مصلحو هذه الأمة الذين يمثلونها فى المطالبة بالاستقلال والحرية..

أما المتطرفون حقيقة فهم الذين يجسدون للأمة الأوهام، ويصفونها بالقصور وعدم الكفاءة.

أقول : يعتبر «حزب الأحرار الدستوريين» الذى قام فى بداية العشرينات(١). من هذا القرن، امتداداً وربيباً لحزب الأمة، وتعتبر السياسة - لسان حال الحزب - استمرارا لصحيفة «الجريدة ، ورئيس تحرير السياسة» «الدكتور محمد حسين هيكل» (باشا فيما بعد) يمت بقرابة قريبة جداً لأحمد لطفى السيد. ورجال حزب الأحرار، أو زعماء الحزب أو البارزون فيه، أو أسرهم أو أكثر هذه الأسر ، أو بعضها هم أنفسهم أركان حزب الأمة. وكذلك كتاب السياسة، أو بعضهم (ومنهم رئيس التحرير والأخوان الشيخان مصطفى وعلى عبد الرازق). هم أنفسهم شباب أو من شباب كتاب «الجريدة».

لقد حمل الشيخان - فيما بعد رتبة الباشوية وشغل كلاهما أحدهما بعد الآخر منصب وزير الأوقاف) وشغل الشيخ مصطفى - بعد الوزارة منصب شيخ الأزهر، لا أظنهما كانا منهمكين فى السياسة كالدكتور هيكل(٢)، لكن الحزب كان حريصاً على تمثيل آل عبد الرازق فى

---

(١) فى الموسوعة العربية الميسرة (مادة - محمد محمود ١٨٧٧ - ١٩٤١) أنه أسس «حزب الأحرار الدستوريين» عام ١٩٢٢، وألف وزارته الأولى عام ١٩٢٨.

(٢) انغمس الدكتور محمد حسين هيكل (باشا) رئيس تحرير السياسة اليومية والسياسة الأسبوعية - انغماساً فى السياسة. ولما رأس محمد محمود (باشا) الوزارة، وهو المعروف بصاحب اليد الحديدية - انغمست (السياسة الأسبوعية) هى الأخرى فى (السياسة الحزبية). وهو ما كانت تتحاشاه - عادة قبل ذلك. وقد نشرت هذه الأخيرة فى عددها رقم ١٦١ المؤرخ ٦ إبريل ١٩٢٩ مقالاً بعنوان حبذا الاستبداد» وهو بدون توقيع. وهذا يعنى أن الذى يتحمل المسئولية الكاملة عنه هو رئيس التحرير.
أقول : «إن الحق أحق أن يتبع». (انظر الآية ٢٥ يونس).

=

تشكيلاته الوزارية. كانا عالمين جليلين وكاتبين قديرين وكان الشيخ مصطفى بالذات مفكراً عظيماً، وتخرج عليه كثيرون من أساتذة الفلسفة الإسلامية حين كان أستاذاً لها بالجامعة - (وفي نيتي بإذن الله أن يكون أحد الذين ساكتب عنهم ضمن رواد الفكر الإسلامي في العصر الحديث) ويرحم الله الجميع.

وأعود وأقول : بعد هذا الاستطراد - كان الوفد - وكيل الأمة، وبرئاسة سعد زغلول قائد ثورة ١٩١٩. كانت ثورة شعب كانت ثورة عارمة شاملة لم تعرف مصر مثلها، لا من قبل ولا من بعد. وقد انشق على الوفد وعلى زعامة زغلول قوم في بداية العشرينات، ومن هؤلاء المنشقين كانت زعامة الأحرار الدستوريين، ثم انشق على الوفد - بعد سعد، وعلى زعامة مصطفى النحاس منشقون، وفي تواريخ متعاقبة. ولا أبرىء الإنجليز والقصر من أنهما كانا وراء هذه الانشقاقات. ولا أبرىء المنشقين. أو أكثرهم أو بعضهم من البواعث الشخصية، والاغراض الدنيوية. كان هناك دستور هو دستور ١٩٢٣، وكانت هناك انتخابات - بدءاً من ١٩٢٤، كان انتصار الوفد فيها - إذ كانت حرة - كاسحاً، لكن المنشقين - وعلى مدى عقود ثلاثة - ورغم أنهم كانوا أقلية ضئيلة، ليس لها برامج فإنهم حكموا مصر معظم الوقت[١] - رغم الدستور ودون برلمان حيناً، وتحت ظل دستور رجعي وبرلمان مزيف حيناً، ونتيجة لانتخابات مزورة دائماً. إن تاريخ مصر الحقيقي لم يكتب بعد. لكن أحداً لا يستطيع أن يجادل في أن الوفد بزعامة سعد ثم النحاس هو الذي قاد نضال الأمة ضد المحتل لكي يرحل، وضد الامتيازات الأجنبية التي ألغيت فعلاً وضد استبداد القصر لكي يكون الحكم للشعب وبالشعب ومن أجل الشعب أما الآخرون[٢]. فلم يكن لهم إلا دعاوى، إنهم لم يكونوا مهادنين للإنجليز والقصر فحسب، بل كانوا ممالئين ومداهنين أيضاً. لقد كانوا أو بعضهم مجرد منفذين لأهداف الإنجليز والقصر وهما العدوان اللدودان لكل إصلاح. ورغم قصر المدة التي حكم الوفد فيها فإن القوانين التي غيرت مسار مصر الاجتماعي إلى الأفضل كانت من صنعه (وأهمها مجانية التعليم)[٣].

=

«وما دام العمل لله فلا خوف من لومة لائم» (انظر الآية ٥٤ - المائدة).

لكن هناك كلمة «وفاء» سجلتها في أكثر من مكان من كتابي «صفحات من اليوميات» (ص٢٩، ٤١ وغيرهما) إشادة بالسياسة الاسبوعية وأعدادها من أعز ما تضمه مكتبتي. لقد كانت ذات تأثير بالغ في مجرى حياتي، وتطوير طموحاتي. وكان ذلك في وقت مبكر (حين كنت بالسنة الأولى بمدرسة المعلمين الأولية بطنطا، وفي صحن الجامع الأحمدي فيما بين السادسة عشر والسابعة عشر من عمري) .

(١) حكم الوفد حوالي ربع هذه المدة.

(٢) أو بعضهم أو زعماؤهم.

(٣) انظر في ذلك كتابي «في إصلاح التعليم الأولي ١٩٤٦» وصفحات من اليوميات (طبعة ١٩٩١م). (ص٢٩، ٤١ وغيرهما).

عود إلى «التطرف»

(٣٧)

بالعدد ٤٨ من «الدستور» المؤرخ فى ١٩٠٨/١/١١ كتب وجدى مقالاً بعنوان : «قوة الشعور فى الأمم» – جاء فيه : كتبنا أمس فصلاً تحت عنوان «هل نحن متطرفون»؟ أثبتنا فيه أنه لا يعوز الأمم المهضومة الحقوق إلا قوة الشعور فهو سبب سعودها وعلة صعودها . ومن ظن أننا غالينا .. أحلناه إلى التاريخ الإنسانى، فإن شاء فليتأمل فى مبدأ الأمة الإسلامية ليعلم أن الشعور باعث حياتها .. فتح المسلمون – فى عشر سنين – بلاد الفرس والروم مع ما كان لهؤلاء وهؤلاء « من سعة العيش وبسطة الملك، وغزارة المادة، وكثرة الجند. وجاء فى المقال : أنا لا أقصد بهذا القول الصد عن التقليد فى الأمور النافعة التى لدى الدول الأجنبية، وإنما أقصد أن أقول : إن الشعور السامى هو مقدمة سائر الثورات السياسية والاجتماعية فى العالم، وإن الذين يعلقون حياتنا وصلاحنا على استسلامنا للمدنية الغربية والسياسة الاستعمارية حتى نتعلم ، إنما يتوخون أبعد الطرق، وربما كان هذا الطريق هو طريق الهلاك، فإن الأمم متى ذهلت عن شخصيتها فنيت فى الأمم المتغلبة عليها .. فبقوة الشعور هب الإنجليز فى القرن ١٣ طالبين الدستور. وكذلك ثار الفرنسيون، .. فهل كان لدى هؤلاء وهؤلاء من العلم والنابغين ما لدى المصريين اليوم؟» فعلى الذين يذكرون التطرف والاعتدال اليوم ويحاربون الذين ينشرون ويغذون الشعور السامى فى الأمة أن يعلموا أن هؤلاء الذين يقومون بهذه الرسالة السامية هم حياة الأمة ومقدمة عظمتها .

أقول: أولاً : لا داعى لتكرار ما قلته فيما سبق عن حزب الأمة وحزب الأحرار الدستوريين، فقد كانوا [١] ، وكان الخديوى وحزبه على عهد الخديوية يرددون ما يدعو إليه الاستعمار من الكف عن «التهييج» والانصراف إلى إصلاح المرافق كالتعليم وغيره. ولا أظن أن معظم هؤلاء كانوا صادقين، إنما كانوا دعاة استسلام للأوضاع القائمة!.

ثانياً : فإننا نلاحظ أن الكاتب قد ضرب لنا أمثلة إسلامية وغربية هى سبيل السعود والصعود والتقدم، فنحن لا ننغلق دون مالدى الغير ما دام نافعاً.

ثالثاً : فإن استقصاء الأحداث فى الماضى البعيد والماضى القريب والحاضر يؤكد أنه لابد من تعبئة الشعور السامى، وهذه التعبئة هى رسالة كل مصلح ووظيفته. وقد جرب بعض القادة والزعماء والشعوب وسيلة «العصيان المدنى» التى نجحت فى الهند بطرد الاستعمار، وفى السودان (وأكثر من مرة) فى إسقاط الاستبداد! ولا يفوتنى أن أقول مرة أخرى نتيجة وحكماً على نتيجة عصر عشته وأقصد به الفترة من ١٩٢٢ – ١٩٥٢ :

---

(١) انظر قوله تعالى : «هذان خصمان اختصموا فى ربهم» (الحج ١٩).

إن معظم هؤلاء الذين دعوا إلى ترك التهييج والانصراف إلى الاهتمام بالتعليم ونحوه، لم يكونوا صادقين أو لم يكونوا قادرين ، إنما كانوا «مستوزرين». إن الأمر لم يكن بأيديهم، إنما بأيدى الإنجليز والقصر (وهما جميعاً يخشيان الاصلاح). إنما قام بالاصلاح «الثوار» الجدد (الوفد بزعامة سعد ثم النحاس). إنه هو أى الوفد الذى ناضل فى كل الجبهات : ضد الاحتلال متمثلاً فى الإنجليز، وضد الاستبداد متمثلاً فى القصر، وضد الرجعيين المستوزرين الذين لم يكونوا ليجلسوا على كراسى الحكم (ومعظم الوقت) إلا بالاستسلام للإنجليز والقصر!.

الجريدة والمؤيد

(٣٨)

كتب وجدى فى الدستور (العدد ٤٩ - فى ١٩٠٨/١/١٢ وتحت العنوان المذكور كتب يقول : الجريدة هى لسان حال حزب الأمة الذى يمثله فى هذه البلاد أكثر من سبعمائة وجيه من وجهائها .. والمؤيد لسان حال حزب الاصلاح الذى يمثله نحو المائتين من المصريين. فهل يليق بهما أى الجريد والمؤيد أن يمثلا للأمة دوراً لا يصح صدوره منهما؟! عهد الناس المؤيد يطارد الجريدة مطاردة خفية، مشجعاً الخارجين عليها من مساهميها .. وعهدنا الجريدة تدافع عن نفسها بشىء من الغمغمة متهمة المؤيد بالتصاقة بالمعية .. والذى نراه أن الواجب عليهما هو التصريح بنقطة الخلاف .. وتحكيم الأمة فهى ذات الرأى الأعلى بدلاً من أن يستثيرا بينهما حرباً كلامية لا طائل تحتها .. فإن وجدا مانعاً من التصريح فليلزما السكوت على أحقادهما - وليحترما الأمة التى يكتبان لها، فإنها أصبحت تعاف الجرائد التى يتشاتم أصحابها كما يتشاتم العامة بغير تحقيق مبدأ أو تقرير مذهب. وهكذا نرى وجدى يشجب التشاتم بين الإخوة والزملاء فى المهنة . ونراه يدعو إلى الموضوعية واحترام مشاعر الأمة. إن الذين يعتلون منابر الصحافة (التى يطلق عليها : «صاحبة الجلالة») يجب أن يكونوا لقرائهم قدوة، ودعاة لدفع السيئة بالحسنة!.

(٣٩)

تحت هذا العنوان كتب وجدى مقالاً من نحو عمودين بالعدد ٥٠ فى ١٩٠٨/١/١٣ قال : نشر المؤيد أمس عدة خطابات وردت إليه من بعض أعضاء شركة الجريدة، وهم أصحاب السعادة : أمين باشا الشمسى، وسيف النصر باشا محمد ، وأحمد باشا رفعت، وتمام كساب بك. وبعد إشارة إلى ما جاء فى كتب هؤلاء من أن خطة الجريدة غير موافقة لمصلحة الأمة، وأن مديرها ومجلس إدارتها لا ينصاعان للنصائح .. وأنها دأبت على الحط من مقام المعية[١]، وأنها تكتب من عندياتها مدعية أنها لسان حزب الأمة، وأن ضررها أكبر من نفعها .. لذلك فإنهم يعلنون على رءوس الأشهاد الانسحاب منها «خصوصاً وأنها صارت فى حالة الاحتضار». وعلق وجدى على ما تقدم بقوله : قرأنا فى المؤيد هذه الخطابات فاستأنا كل الإستياء لا لأن الجريدة كانت فى تحريرها على ما نحب ونرضى، ولكن لأنه عرض من أعراض الانخذال. وكان الواجب العمل - داخل الشركة والحزب - على اصلاح المعوج ورأب الصدع ، فإنه أولى من الانخذال وقت الاعسار وساعة العثار، وطالب وجدى «الذين لم يزالوا فى عضوية شركة الجريدة أن يسارعوا إلى تدارك الأمر وحيازة هذه المحمدة».

سبحان الله ! يكره الانقسام والتفرق فى حزب من أحزاب مصر مع عدم رضاه عن سياسة هذا الحزب! إنه السمو الإسلامى، إنه القلب الذى لا يحمل شراً لأحد. وأعود إلى الدستور العدد ٥١ فى ١٩٠٨/١/١٧ وتحت نفس العنوان : «الجريدة ومساهموها» - كتب وجدى نحو ثلاثة أعمدة. قال - مما قال - : «لا يزال مساهمو الجريدة يتسللون منها ومن حزبها، والمؤيد يشجعهم على ذلك. لقد كان الأليق بالمؤيد أن يحزن حين يرى انحلال الجريدة وحزبها على هذه الصورة.

يقول قائل : ألا يسرك أن تنحل الجريدة وبينك وبينها من الخلاف السياسى ما لا يجهله أحد؟ أقول : كلا إنى أكره الانحلال والخذلان أنّى وجدا .. على أن انحلال الجريدة وانفضاض حزبها عنها لا يشبهه أى انحلال آخر من هذه الأمة. الجريدة هى أول عمل سياسى مصرى، وحزبها هو أول حزب تكون فى هذه الأمة، فلا يكون انحلال الجريدة والحزب بالأمر

(١) لم يكن هذا لشجاعة أدبية ولا لمصلحة وطنية أو قومية أو إنسانية. وقد عرفت «السياسة» وهى امتداد للجريدة وعرفت حزب «الأحرار الدستوريين»، وهو امتداد لحزب الأمة - عرفتهما وعرفت مواقفهما من «الملك» الذى صار له من الأمر شىء بعد ١٩٢٢ وشىء أكثر بعد معاهدة ١٩٣٦. لقد كان الموقف مختلفاً عما كان مع الخديوى فى بدايات هذا القرن.

الهين .. حتى لقد وقر فى صدور أعداء الأمة أنها لا تجتمع على أمر هام مطلقاً .. تريد أن يسهل على أن أرى انفراط العقد، وتشهير البعض بالبعض، وقيام المؤيد بتسويغ هذا التخاذل؟! تريد منى أن أسر من رؤية وجهاء البلاد يفشلون ولا يفكرون فى نتيجة هذا الفشل الخطير على مـــركـز الأمـــة؟ مم يفر هؤلاء الأعيان الكبار؟ وبعد مناقشة واعية وقيمة لمختلف الاحتمالات يقول : لا تعلموا الأمـــة استسهال الخيبة، بل علموها كيف تصلـح الفاسـد ... أسمعوها صوتكم بالنصيحـة .. فـإن لم تستطيعوا الإصلاح فاجتهدوا فى ألا يسمع ضجة انحلالكم أحد.

ولم أر فى عيوب الناس عيباً ∴ كنقص القادرين على الكمال.

أقـول : هـــذا هو موقف وجدى مـــن «الجريـدة» و حـــزب الأمـــة، لكـــأن وجـــدى ملاك من السمـــاء، لكأنـــه قديس لا يجـود الزمـان بمثله إلا قليلاً. وهذا هو «الإسلام» وقواعـده وروحه. إنـه الشجرة الطيبـة المباركـة حيـن تصادف أرضـاً طيبـة مباركة. هذا هو الإسلام الذى ينطلق منه وجـدى. إنه هو القـائم وراء كل مـواقـفـه. إنه المرابط السـاهر على حـراسـة الفضائل ..!.

يكظم الغيظ ويعفو عن الناس

(٤٠)

ما قرأت لوجدى، وما تتبعت أقواله وأفعاله، وسلوكياته وتصرفاته ومعاملاته إلا ازددت يقيناً بأنه ما كان ليكون كما كان، إلا لأنه «رجل مسلم» حَسُنَ إسلامه فحسن منه كل شيء. إنه من العلماء الذين قال فيهم نبينا عليه الصلاة والسلام «العلماء ورثة الأنبياء». إنه ونظراؤه امتداد لهم. وفى القرآن الكريم الكثير والكثير عن فضلهم ومكانتهم، من ذلك قوله تعالى : «إنما يخشى الله من عباده العلماء» (٢٨ – فاطـر). وقـولـــه : «يرفع الله الذيـن آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجـات» (١١ المجـادلـة). وقـولـه : «وتلك الأمثـال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمـون» (٤٣ العنكبوت). وإنى إذ أشير إلى ما جاء فى كتاب الله وسنة رسوله عن العلم والعلماء أذكر هذه الواقعة نقلاً عن الدكتور محمد طه الحاجرى – فى كتابه «محمد فريد وجدى – حياته وآثاره (١٩٧٠ ص١٣٣ وما بعده) والواقعة خاصة بالعلاقة بين محـمد فريد وجدى – ورشـيد رضـا (صاحب المنار)[1]. نشبت معركة قلمية بين الاثنين، وكان الشيخ رشيد هو البادىء بالهجوم وقلب حسنات «وجـــدى افنـدى» إلى سيئات، واسترسل فوصفه بأوصاف هو منها براء. لقد عاب

(١) انظر سابقاً البند ٢٥، وكان الشيخ رضا فى رسالته إلى الشيخ المغربى، والمشار إليها فى البند المذكور قد قال عن وجدى : «فريد بك وجدى بن وكيل محافظ دمياط شاب نبيه ذكى، أبصر أهل دمياط بحالة الإسلام. وجهته مثلناً دينية وله اعتناء بالفلسفة ... وهو منفرد بهذه الأفكار فى دمياط. زرت فريد بك وزارنى ونشط همتى على إنشاء المنار... هذا ما قاله، عند مقدمه إلى مصر، فماذا قال عن وجدى بعد ذلك، وعند ما تغير ما فى القلوب، هذا ما نشير إليه فى المتن.

عليه – على سبيل المثال – وساخراً ومتهكماً – أنه صاحب «مدرسة العلوم العالية التى لم تكن تشغل سوى حجرة فى إحدى المدارس، كما أن صاحبها هو الاستاذ الوحيد فيها .. وقد رد عليه وجدى فى جريدة اللواء، وأشار إلى ذلك مع رد عليه فى مجلة الحياة – وبينما استمر الشيخ رشيد فى الطعن عليه، توقف هو إذ تدارك نفسه التى اعتادت على دفع السيئة بالحسنة. وفى العدد التالى من «الحياة» كتب كلمة قصيرة رجا فيها القراء ألا يعتبروا الصحف التى نشر فيها الرد جزءاً من المجلة قائلاً فى ذلك «ربما أن هذه أول مرة قابلنا فيها الإساءة بمثلها، فيجب ألا تحفظ هذه الملزمة فى مؤلفاتنا . ونرجو حضرات القراء رفعها منها . وقد جعلنا أرقام المجلة تابعة للملزمة التى قبلها . هدانا الله إلى خير الأقوال والأعمال، وحفظنا من زلات الألسنة والأقلام!.

وخير ما أبدأ به فى تعليقى على ما تقدم هو ما يلى من نصوص قرآنية ونبوية : يقول تعالى فى صفات المؤمنين كما جاء فى سورة الشورى الآية ٣٧ : «والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون».

ويقول فى الآية ١١٠ النساء : «ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيماً». ويقول فى الآيتين ١٤٩،١٤٨ من نفس السورة : «لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم، وكان الله سميعا عليما. إن تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفوا قديراً».

وفى سورة آل عمران يقول تعالى : «وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين. الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس، والله يحب المحسنين. والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم، ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون. أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين» (الآيات ١٣٣-١٣٦).

أما عن الأحاديث الشريفة التى ذكرها أصحاب التفاسير، مما يتعلق بالآيات السابقة وما تضمنته من كظم الغيظ والعفو عن الناس، ومغالبة النفس الأمارة بالسوء، والانتصار على ما يجتاحها عند الغضب فهى كثيرة جداً. وأحيل – على سبيل المثال – على تفسير ابن كثير وتفسير القرطبى، مكتفياً بالنصين التاليين : «... اللهم اجعلنى من الذين إذا أحسنوا استبشروا ، وإذا أساءوا استغفروا» (رواه بن ماجه والبيهقى عن عائشة رضى الله عنها). وعن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «من كظم غيظاً، وهو يقدر على إنفاذه ملأه الله أمناً وإيماناً» رواه ابن جرير.

وبعد : فقد استقرت القيم الإسلامية – كما جاءت فى كتاب الله وسنة رسوله – فى قلب المرحوم وجدى وعقله، وجرت فى دمائه وعظامه. ومن كان هذا شأنه لم يعد للنفس الأمارة بالسوء تسلط عليه، وذلك فضل من الله يؤتيه من يشاء.

(٤١)

في كتابي «الإسلام وحقوق الإنسان – دراسة مقارنة» (طبعة ثانية بند ٣٢٦) كتبت «وذكر الأستاذ أنور الجندي في كتابه «محمد فريد وجدي» (١٩٧٤ ص٤٠) أنه (أي وجدي) هاجم الشاعر أحمد شوقي شاعر الأمير إذ ذاك على إثر تصريح له، وكان هجومه عليه منصباً على انصرافه عن الحركة الوطنية إلى مدح الأمير. ومما قاله وجدي في ذلك (جريدة الدستور في ١٩٠٨/١٠/٢).

نشأ شوقي شاعراً، فصرف جهوده في مدح الخديوي السابق، ولو أحصى الشعر الذي قاله في المديح والتشبيب لبلغ عشرين ألف بيت وزيادة). هذا ما كتبته في كتابي سالف الذكر، تحت عنوان «الإسلام ومكارم الأخلاق» وعرجت فيه على «المدح وتزكية النفس والفخر والهجاء» مما نهي الكتاب والسنة عنه.

وأعود إلى نفس المرجع ونفس الصحفة نقلاً عن «الجندي» يقول وجدي «ولو كان شوقي استعمل الشعر فيما أريد منه في هذا العصر لما تغنى النشء الجديد اليوم إلا بأشعاره، ولكان له على عقول الناس أكبر تأثير. هل يليق بشاب عصري أن يفتح حياته السياسية بتصريح لم يبق في مصر عقل يدرك إلا عدّه مروقاً من الوطنية، ولا يجلب لقائله إلا سخط أبطالها؟ ويخاطب شوقي قائلاً: «حرام عليك أن تعقل مواهبك في سبيل حياة زائلة، ومتاع قليل. وإنما العيش أيام معدودة، والعمر رأس مال كبير»(١).

أقول: في الحديث الشريف «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» وإنه من الجهاد أيضاً – كلمة حق في مواجهة رأي عام مضلِّل.

وإنه جهاد كذلك كلمة حق ضد صاحب الباطل فردا كان أم جماعة. وقد قام وجدي بكل هذه الواجبات في سائر الجبهات. وقبل أن أقول رأيي فيما قاله وجدي عن شوقي – أنقل ما يلي عن «الإعلام للزركلي» (المجلد الأول ص١٣٦، ١٣٧) وتاريخ مولد ووفاة شوقي – كما جاءت في الأعلام (١٢٨٥ – ١٣٥١هـ – ١٨٦٨ – ١٩٣٢م). «شوقي هو أشهر شعراء العصر الأخير، ويلقّب بأمير الشعراء. نشأ في ظل البيت المالك بمصر .. وأرسله الخديوي توفيق ١٨٨٧ إلى فرنسا فتابع دراسة الحقوق في مونبلييه وعاد عام ١٨٩١ فعين رئيساً للقلم الأفرنجي في

---

(١) من الانصاف أن أشير هنا إلى أن وجدي كان يستشهد فيما يكتب بشعر شوقي الذي جرى مجرى المثل. وفي البند – ٩ – مثال لذلك.

ديوان الخديوى عباس حلمى .. ولما نشبت الحرب العالمية الأولى ونُحى عباس عن خديوية مصر أوعز إلى شوقى باختيار مقام غير مصر، فسافر إلى أسبانيا عام ١٩١٥، وعاد عام ١٩١٩. وقد عالج شوقى أكثر فنون الشعر : مديحاً وغزلاً ورثاء. وكانت حياته كلها للشعر. وعاش مترفاً فى نعمة وسعة ودعة تتخللها ليال «نواسية»(١). وهو أول من جود القصص الشعرى التمثيلى بالعربية. ومن آثاره الشوقيات .. ومصرع كليوباترا (قصة شعرية) ومجنون ليلى وقمبيز ..

وإنى فى غنى عن القول بأن مانقلته فيماتقدم عن أحد كتبى يعنى أنى أشارك فيما نعاه وجدى على شوقى. وقد قرأت وتحمست – فى صدر شبابى لما كتبه طه حسين(٢)، والعقاد(٣)، والمازنى(٤)، وغيرهم نقداً لشوقى (من الناحية الفنية) وما زلت أذكر ما جاء فى كتاب للعقاد بعنوان «رواية قمبيز فى الميزان».

يقول العقاد : ولم تخل الرواية – كذلك – من السرقة الظاهرة فى النظم كقوله «تعيش مصر وتبقى» وهى كلمات البهاء زهير، مأخوذة من بيته :

تعيش أنت وتبقى ∴ أنا الذى مت عشقاً

لقد مضى على هذه المعارك (معارك طه حسين والعقاد والمازنى ومعاصريهم ضد شوقى أكثر من ستين عاماً (٥).

وبعد : فإنى لست ناقداً أدبياً، إنما كنت أقرأ فى صدر شبابى، وأتأثر بما أقرأ، شأن معظم الشباب فى هذه السن. وهذا يثير قضية كبيرة تتعلق بأمانة الكلمة وتجنب المبالغة !. ومع ذلك يبدو لى – وقد يكون هذا أدنى إلى الصواب – وجوب التفرقة بين عهدين : عهد شوقى شاعر الخديوى الذى عزل عام ١٩١٤ وعهد شوقى بعد العودة من منفاه بأسبانيا عام ١٩١٩. فى هذا العهد الأخير أنشأ شوقى قصصه الشعرية التمثيلية، وبمقدرة شاعر كبير كان الشعر كل صناعته.

وجدى وطه حسين

(٤٢)

للدكتور طه حسين يرحمه الله كتاب فى «الشعر الجاهلى» أثار عجيجاً وضجيجاً عند ظهوره، وقد كان وجدى يرحمه الله أحد الذين سارعوا فأصدر كتاباً بعنوان «نقد كتاب

---

(١) نسبة إلى الشاعر الماجن فى العهد العباسى الأول أبى نواس.

(٢) انظر له – على سبيل المثال – كتابه «حافظ وشوقى».

(٣) ، (٤) انظر لهما على سبيل المثال – «الديوان».

(٥) أما ما قاله وجدى فى «الدستور» عام ١٩٠٨ فقد مضى عليه ست وثمانون عاماً.

الشعر الجاهلي» وهو أي كتاب وجدي مؤلف لخص فيه كتاب الدكتور طه، ونقد منه ما يتعلق بعلم التاريخ والاجتماع والأدب (كما جاء تحت عنوان كتاب الناقد الفاضل). وأقول : إن «الناصح» أو «الناقد» (أي ناصح وناقد) يجب أن يتحلى بالخبرة والدقة والأمانة جميعاً. ووجدي أحد رجال الصف الأول الذين يحملون هذه الصفات والمؤهلات.

وكتاب وجدي مطبوع بمطبعة دائرة معارف القرن العشرين بمصر في ٥ أكتوبر ١٩٢٦. يقول وجدي : في مقدمة كتابه (بعد الافتتاح – باسم الله الرحمن الرحيم). «قرأت فصولاً لبعض شيوخ الأدب ... يشنون فيها على هذا الكتاب «في الشعر الجاهلي» حرباً طاحنة باعتبار أن المؤلف قد استطرد إلى ذكر مسائل اتبع فيهاغير سبيل المؤمنين، بل جحد بعض ما نص عليه الكتاب المبين. ثم لم تمض غير أيام حتى قرأت في الجرائد أن علماء الجامع الأزهر قد اجتمعوا وقرروا أن في كتاب طه حسين كفراً صريحاً، وطالبوا الحكومة بمصادرته، ومنع مؤلفه من التدريس. وبينما الناس ينتظرون جواب الحكومة، إذا بالدكتور يعلن أنه لم يقصد الطعن في الدين، وأنه يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر..

هذه الحلقات المتصلة من الحوادث التي أثارها هذا الكتاب حفزتني إلى الاطلاع عليه فرأيت فيه أخطاء اجتماعية وسيكولوجية وفلسفية لا يصح السكوت عليها.

وأقول : إني قد تصفحت الكتاب، فلاحظت فيه ما عرف عن مؤلفه وجدي من إثبات القول المخالف والرد عليه بما يجمع بين الكفاءة والأمانة. وفي كثير مما أثير نجد الناقد يوافق على ما قاله طه حسين ويؤيده.

بالصفحة الخامسة من كتاب وجدي، وتحت عنوان «رأينا في هذا الكلام» يعقب وجدي، قائلاً : «إن العبارات التي أتينا عليها في الفصل المتقدم (وفيه ملخص لما كتبه طه حسين في التمهيد لكتابه). يقول وجدي : إن طه قد انتحى في هذا التمهيد مذهباً، لا نقول حسناً فحسب، بل نقول هو المذهب الوحيد الذي لا يصح الجرى على خلافه، ليس في نقد ما تركه لنا الأقدمون في الأدب فقط، ولكن في كل ما تركوه في جميع فروع المعرفة والمعلومات البشرية .. فتمهيد الدكتور طه حسين هو المنتظر من استاذ الآداب في الجامعة، ولو جرى على خلافه لاعتبر غير خليق بمكانه منها ...

أقول : لقد زل قلم الدكتور طه يغفر الله له ولي – إذ جرت له عبارة بها مساس بكتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي وعد الله بحفظه، لكنه (أي الدكتور طه) – كما قال مولانا الشيخ الشعراوي قد استغفر وتاب وأناب، والله هو التواب الرحيم. (وانظر تفاصيل في هذا الموضوع في «صفحات من اليوميات للمؤلف» طبعة ١٩٩١ ص٤٠ وما بعدها.

إصلاح الأزهر

(٤٣)

أقول فى البداية : إن الأزهر ليس للأزهريين وحدهم، وليس للمصريين وحدهم، ولكنه لكل المسلمين فى كل بقاع الأرض. وما أكثر عددهم، وما أوسع انتشارهم ! إنه الجامعة الإسلامية العتيقة التى خدمت الفكر الإنسانى عامة، والفكر الإسلامى خاصة ما ينيف على عشرة قرون. ولقد كتب الكثيرون من الأزهريين وغير الأزهريين عن «الأزهر» و«إصلاح الأزهر» ولقى بعضهم – وعلى رأسهم الاستاذ/ الإمام الشيخ محمد عبده – بسبب الدعوة إلى إصلاح الأزهر شراً كثيراً من بعض شيوخ الأزهر ومن الخديوى وحاشيته!.

وإذا لم تكن الذاكرة قد خانت فالشيخ عبده هو القائل فى مرض موته :

ولست أبالى أن يقال محمد ∴ أبلَّ أم اكتظت عليه المآتم

ولكن دينا قدر أردت صلاحه ∴ مخافة أن تقضى عليه العمائم

انتقل بعد ذلك إلى ما قاله وجدى فى العدد ٥٠ من الدستور فى ١٩٠٨/١/١٣ قال : أمر الخديوى بتشكيل لجنة للنظر فى إصلاح الأزهر. وبعد كلمة فى «سنة الله» فى التدافع بين أنصار القديم وأنصار الجديد» الذى تتجلى به الحقيقة الثابتة، فلا تنقطع الصلة بين ماضى الأمة وحاضرها، ولا تتخذل اسباب العلاقة بين دينها ودنياها، فيُقام أمرها على أكمل الوجوه الممكنة حتى يحدث من المقتضيات الحيوية ما يبعث إلى تغيير جديد وهلم جرا. لهذا لا نرى حرجاً من وجود أنصار أقوياء للقديم فى الأزهر، بل ربما ملنا إلى تشجيعهم ... ولكن عليهم ألا يكتموا ذلك فى صدورهم، بل يجب الإعلان عن آرائهم على صفحات الجرائد. إن عدم الصراحة والخشية من الإدلاء بالحجة، والتظاهر جهراً بضد ما نقش فى السرائر هو الذى أضر بالمسلمين، من هنا كانت الحرية فى القول والكتابة من الشروط الأولية لاتحاد الآحاد وتضامنها فى الحياة الاجتماعية. وأشار الكاتب إلى ما يجرى فى الغرب من إعلان العلماء والزعماء عن آرائهم ومذاهبهم، فصارت لهم بذلك شهرة ومكانة فوق شهرة الملوك ومكانتهم. أما علماء الدين عندنا فقد ألفوا كتم ما فى صدورهم. وبذلك لم يمكن تشخيص مذاهبهم. وختم المقال قائلاً :

«الأزهر فى حاجة إلى الإصلاح وإن لم يصلحه اليوم أهله مختارين، أصلحه غداً غيرهم، ولا يكون لهم من الأمر شيء. أقول فى خاتمة هذه الكلمة : إن هذا الذى كَتَبَ عام ١٩٠٨ ما كَتَبَ عن الأزهر شاء الله أن يتولى بعد نحو ربع قرن من الزمان – رئاسة تحرير مجلة الأزهر، واستمر فى ذلك نحو عشرين عاماً، ينشر رسالاته ودعواته إلى جميع قرائها فى جميع أنحاء الدنيا!.

الدستور وعودة إلى الظهور

(٤٤)

سبقت الإشارة أكثر من مرة إلى أن «الدستور» بدأ - أول ما بدأ في ١٩٠٧/١١/١٦ وتوقف عن الصدور عام ١٩١٠. وقد شاء الله أن يعود إلى الظهور عام ١٩٢٢. لقد كان وجدى سياسياً لحماً ودماً، كان وطنياً وكان قومياً، وكان إسلامياً، وكان عالماً، وكان في هذا كله، وكما قلت في مكان آخر - أحد الأعلام الكبار الذين مارسوا السياسة، على أرفع المستويات وأطهرها وأسماها.

في الفترة من ١٩١٠ إلى ١٩٢٢ مرت بالعالم وبمصر أحداث كبار: وقعت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) وثارت مصر - كل مصر - ثورتها الكبرى التي لم تعرف البلاد نظيراً لها من قبل ولا من بعد. وكان «الشعار» (وبزعامة الوفد ورئيسه سعد زغلول): - «الاستقلال التام لمصر والسودان) أو الموت الزؤام». وكانت أحداث أخرى كبيرة، منها انشقاق البعض على الوفد وسعد..

عندما طلبت من المختصين بالهيئة العامة للكتاب، صحيفة الدستور العائدة عام ١٩٢٢ قدموا إليّ مجلداً يضم الأعداد من ١٩٢٢/١١/٩ إلى ١٢/٢٥ من نفس العام(١).

وفي الصدر بأعلى الصفحة الأولى: (الدستور - يومية سياسية أدبية اقتصادية (مسائية) الدستور يحترم كل رأى وينشره وإن خالف مذهبه السياسي، ولا يعد عليه إلا ما ينشره بتوقيع صاحبه، أو غفلاً من التوقيع.

والمقال الافتتاحي (وهو على يمين الصفحة الأولى) مقال قصير. وفيه «بسم الله الرحمن الرحيم - «عودنا إلى المجال السياسي»، وبعد الحمد لله والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين قال (ما موجزه): أما بعد: فقد تركنا مجال الصحافة اليومية على كره منا عام ١٩١٠. كان الموجود أثناء تلك الفترة نحو من خمس عشرة صحيفة، لم يعش منها إلا ما كان يعتمد على إمداد حزب قوى أو سلطة عالية: فطويت على التتابع بعد الدستور - صحف النظام - الظاهر - ضياء الشرق - الجريدة - مصر الفتاة وغيرها.

أكببنا من ذلك الحين - على وضع «دائرة معارف القرن الرابع عشر الهجرى - العشرين الميلادى). وفي عام ١٩١٩ أسرعنا إلى قلم المطبوعات للتصريح لنا بإصدار جريدة يومية، فقيل لنا. إن الأحوال الراهنة لا تسمح بظهور صحف جديدة. وطال الوقت إلى ثلاث سنوات بين

---

(١) أعيد الدستور عام ١٩٢٢ كجريدة يومية، واستمر يصدر كجريدة أسبوعية حتى عام ١٩٢٣ (الجندى - نفسه ص١٩٠).

مطالبة ومواعدة، حتى تم التصريح لنا فى «أكتوبر الماضى، وبعد كلمة بليغة وقوية عن مصر بعد انتهاء الحرب العالمية، ونفى سعد زغلول وصحبه وتصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢) نوه بثورة مصر، كل شعبها، من أجل الاستقلال والدستور .. وختم كلمته بقوله : هذه كلمتنا فى فاتحة عملنا. ونستغفر الله مما قد يكون تسرب إليها من الفضول ... ومن الله نستمد القوة والعون.

وفى الصفحة الثانية من هذا العدد الأول : «نظرة على السياسة المصرية - الدستور يطالب بالدستور» (بتوقيع محمد فريد وجدى). وفى الصفحة الثالثة : «الانقلاب الجديد فى نظام الحكومة العثمانية - بحث فى الخلافة الإسلامية» (بنفس التوقيع). وبالصفحة الرابعة : «الموجود من مؤلفاتنا» (مع نُبذ منها). والعدد الأخير : من المجلد الذى قدم إلىّ وهو بتاريخ ١٩٢٢/١٢/٢٥ - نجد المقال الافتتاحى وهو بالصفحة الأولى (بدون توقيع) - وهذا يعنى أنه لوجدى. وعنوانه «الأمة التركية - الأمس واليوم تغييرها للنظم العتيقة واتخاذها لنظم جديدة تناسب حياتها الحديثة». وبالصفحة الثانية (وبتوقيع : محمد فريد وجدى) : «إجماع الأمة على طلب إعادة سعد باشا - وفود الأقاليم إلى القاهرة - وإضراب الطلبة - الاجتماع العظيم بحديقة الأزبكية» - وفى ختام هذا التقرير تعقيب من خير ما يمكن أن يكتب عن سعد، وعن إجماع الأمة على زعامته. وبأعلى الصفحة الثالثة وعلى اليمين : «أخبار الوفد - وإلى اليسار : أخبار اليوم التشريفات الملكية».

وفى هذا تقديم وتكريم «للوفد - وكيل الأمة». وتحت أخبار الوفد برقية من «جبل طارق» حيث كان سعد وصحبه منفيين(١). إلى «المصرى السعدى بك - بيت الأمة مصر» :

أشكر بنى وطنى أن جعلوا لبعدى وصحبى يوماً يذكر الأقوياء وأشياعهم بسوء تدبيرهم، وخطأ تقديرهم.

أخذونا من ديارنا فأدخلتمونا فى قلوبكم.
حاولوا إفناءنا من بينكم، فخلدتمونا فى صفحات صدوركم.
أرادوا بالعنف تفريقكم، فزاد العنف اتحادكم.
تعمدوا بالشدة إذلالكم، فلم تذلوا وزادت الشدة فى عزمكم،
تفننوا فى إضلالكم فلم تضلوا، وزاد الإضلال فى هديكم.
وهكذا خيب الله آمالهم، وسوف يحقق بقدرته الواسعة آمالكم.

(التوقيع - زغلول).

والصفحة الرابعة من هذا العدد من الدستور، إعلان عن كتب صاحب الدستور وبيان لمحتوياتها، ومنها «دستور التغذية».

---

(١) هؤلاء الصحبة هم (كما جاء فى توقيعات برقية من «أبطال سيشل إلى الشيخ القاياتى بمناسبة الإفراج عنه فتح الله - سينوت - عاطف - النحاس - مكرم - والراجح لدىّ أنهم - فتح الله بركات - سينوت حنا - عاطف بركات - مصطفى النحاس - مكرم عبيد)

يقول العقاد : (البند ٢١ – جـ) إن وجدى كان فريد عصره فى كذا .. وكذا .. وكان أكثر انفراداً حين استقل وحده بإصدار صحيفة يومية، ولم يكن معه من المحررين غير كاتب هذه السطور (أى العقاد)، ولو استطاع أن يؤدى أعمال التحرير خارج المكتب، وفيها الأحاديث وأخبار الدواوين لاستقل وحده بالإدارة والتحرير». هذا ما يقوله العقاد وقد تحققت منه (على ما تبينت) بعد اطلاعى على العددين سابقى الذكر، فقد انفرد بتحريرهما. وقد حضر بنفسه الاجتماع الكبير بالأزبكية، حيث تلاقت فيها الوفود من جميع أقاليم مصر، فى هذا اليوم العظيم من أيام مصر والوفد. وقد كتب عن ذلك تقريراً ونشره فى الدستور، يتدفق حماساً وإخلاصاً وبلاغة(١).

ملحق «الوجديات»

(٤٥)

منذ الزمن القديم، وحتى اليوم – كتب الكثيرون من الفلاسفة والمفكرين، ويكتبون عن «المدينة الفاضلة» (L'otopia). إنها مدينة أو دولة خيالية تتوفر فيها كل المقومات والشروط السياسية والاجتماعية التى تجعلها كأسمى وأفضل ماتكون المدينة أو الدولة.

ويقول سباين «تطور الفكر السياسى جـ٢ ص٢٦١» – إن تمجيد الحالة الطبيعية الفطرية كما ذكرها أفلاطون الإغريقى فى كتابه «القوانين»، وكما ترنم سينيكا الرومانى بالإشادة بها، كان أساس النظريات السياسية المتصلة «باليوتوبيا»(٢). ومنذ قرون عديدة كتب «الهمذانى» «والحريرى» (من الأدباء العرب) مقامات، وكذلك «اليازجى» وغيره من أدباء العصر الحديث. إنها مقامات أو مقالات خيالية، ينقد من خلالها هؤلاء المفكرون حاضر بلادهم وعصورهم، ويرسمون لها خططاً لمستقبل أفضل. وما أكثر ما عانت الشعوب، وما أكثر ما تعانى من متسلطين طغاة وما أكثر ما تألم ذوو القلوب الكبيرة الرحيمة لما شاهدوه من قهر الإنسان لأخيه الإنسان، ففاضت خواطرهم بهذه «اليوتوبيات». ولم يسلم كثيرون من هؤلاء من بطش الجبابرة الفجار.

ولا استطرد مع التاريخ، وإنما أعود إلى العالم المسلم الكبير «محمد فريد وجدى» وإلى كتابه «الوجديات».

وهذا الكتاب «من حيث الفكرة والصياغة» من خير ما قرأت فى موضوعه، وفيما يلى ملخص الوجدية الرابعة عشر وفقرات من الوجدية الحادية عشرة :

---

(١) لقد كان وجدى أحد أقطاب الحزب الوطنى. ولا أظنه تخلى عن مبادىء هذا الحزب، ومع ذلك نرى إنصافه، بل وحماسه للوفد وسعد، إن ثورة ١٩١٩ كانت ثورة شعب. ووجدى هو أحد الرجال الأبرار بهذا الشعب.

(٢) انظر للمؤلف «الإسلام وحقوق الإنسان» – دراسة مقارنة والمراجع المشار إليها فيه – طبعة ثانية بند١٨٥

الوجدية الرابعة عشر (ملخصة)

(٤٦)

قال الوجدان(١) : أخذت نفسي بعادة صحية، ما تخلفت عنها إلا لعذر، وهي أن أستتم مجهوداتي العقلية، برياضة جسدية. فخرجت يوماً من مكتبي، وقد أجهدني البحث والتنقيب.. إلى شاطيء البحر الأبيض.. واستأجرت قارباً .وأمسكت المجدافين .. واتجهت إلى عرض البحر الذي كان هادئاً فانقلب عاصفاً .. واستولت الأمواج على الزورق .. فأيقنت بالهلاك، وبينما أنا في هذه الشدة الفادحة.. إذا حوت اجتذبني إلى جوفه فدخلت في عالم الظلام والوحشة، ما دخله قبلي إلا يونس عليه السلام، إذ ابتلعه الحوت وهو مُليم.. وبينما أنا أدهش مما وصلت إليه إذا بشيء يهوى إلى من بلعوم الحوت .. إنه رجل آخر، ولما أخذت اسأله أظهر يأساً. فقلت له : يا هذا إننا في هذا المأزق الخطير أحوج ما نكون إلى استعمال العقل والروية. فوالله ما زاد على أن استرسل في الأنين، وما شككت في أنه سيلاقي حتفه هلعاً، قبل أن يقتله الحوت هضماً. فصحت به : إن كان ولابد من الموت أيها الرجل، فلنمت كما يموت الكرام بنفوس هادئة وقلوب رابطة، ولكني أربأ بنفسي ان أموت قبل أن استنفد كل حيلة ... لا أيأس من روح الله ما دام في رمق. أمعك سلاح ؟ استللت سيفاً كان معه ومزقت أحشاء الحوت الذي آتي بنا على أرض ومات. وخرجنا .. وسألني صاحبي بم حصلت على هذا التبصر عند الشدة ؟ فإنه خير ما يقتني المرء من العُدد في هذه الحياة المملوءة بالمعاطب ؟ قلت بالعقل : «إن من عقل أنه لا محالة ميت، طوعاً أو كرهاً ، تدبر ذلك وهانت عليه الشدائد، وزايله هلع الأطفال، وملك قياد نفسه عند المصيبة واتسعت له وجوه الحيل، وانبسطت وسائل النجاة الممكنة. فإن قدرت له النجاة وفقه الله إلى واحدة من تلك الوسائل، وإلا واجه الموت وعليه سكينة الصالحين(٢).

وأخذنا نضرب في الأرض .. حتى لاحت لنا شارة حياة .. وقربنا من خيام مضروبة لا يحصي لها عدد .. وفي ساحاتها رجال ونساء وولدان، وقد اجتمع كل فريق مع مُشاكله سناً وجنساً؛ وقد افترشوا من الأعشاب أبسطة سندسية، قد حلاّها نثار الزهور بمثل النقوش الحريرية .. وفي خلال تلك الطنافس غدران لولا جريان الماء فيها لخلتها أعمدة بللورية. وتأملت وجوه القوم، فإذا بها ناصعة البياض، وردية الإهاب، تحيط بها لحيٌ فاحمة السواد، تفتر ثغورهم عن أسنان كالدر المنظوم .. وتلطفوا في ضيافتنا .. وقادونا إلى خيمة .. وهناك قدم إلينا طعام، ما فيه – والله إلا ثمر الأشجار، وشهد الأزهار، وحليب الأبقار. وسألنا كبيرهم من أين ؟ فقصصنا قصتنا .. سألناهم عن هذه الجزيرة المنعزلة عن العمران .. قال كبيرهم : كان

---

(١) هو «وجدي» نفسه.

(٢) هذا معنى إنساني كبير وفيه يقول العرب :

إذا لم يكن من الموت بدٌ ... فمن الحمق أن تموت جباناً.

أبونا الحكيم بن عاقل من سكان اليمن أيام مدنيتها فى ولاية سيف بن ذى يزن التُّبعى، وكان كثير التأمل فى الكون، شديد الميل إلى البساطة الأولى .. معتقدا أن الإنسان ما قاده إلى نمائم الأمور والصفات .. إلا انغماسه فى الترف.. ولم يستطع إصلاح قومه، إذ تبين له أن المدنية (من هذا النوع الترفى) متى نشبت فى قوم صعب تطهيرهم من أدوائها، وأنها لا تزال بأهلها حتى تحل عليهم كلمة التلاشى والزوال، وتقيم على أنقاضها أمة سواها، وقرر اعتزال بنى قومه، مكتفياً بأهله، حملهم معه فى سفينة، وأخذ من كل زوجين اثنين حتى استقروا على هذه الجزيرة .. وبذل وسعه على أن يربى نويه على الفضيلة الصحيحة، معتقدا أنها هى السعادة التى ينشدها النوع البشرى.. وما عداها أباطيل(١). ومطالب للجسم دون الروح .. قلت : وهل أنتم سعداء بالمعنى الذى كان ينشده جدكم الأول ؟ قال : إن كانت السعادة صحة الجسم والعقل، وراحة البال، وطول العمر، ومشارفة عجائب الروح وجلالها، والعيش مع أمثالنا إخواناً متراحمين، بلا ظلم ولا انظلام فنحن سعداء بالمعنى الذى كان ينشده جدنا الأول.

قلت : يؤخذ فى هذا أنكم لا تمرضون، ولا تحزنون، ولا تتزاحمون فتعتدون . قال : كان جدنا يقول : إن الجسد آلة حية .. فإن أحسن صاحبها استعمالها .. بقيت له سليمة، وإن عوملت بالطيش .. تعرضت للموبقات، وربما بادت قبل بلوغ مداها .. فنقش فى أذهاننا هذا الأدب حتى جعله فينا طبيعة. ولذلك ترانا لا نأكل حتى نجوع .. وقد علمنا أن حواسنا حراس علينا .. فإن أحسسنا بما نستنكر تحولنا عنه إلى ما نستلطف .. وإن طلبنا النوم نمنا، أو المشى مشينا، لا نحمل أعضاءنا على ما تكره، فكانت نتيجة إعطاء كل عضو حقه فى جسدنا أن فاضت على مجموعها صحة لا مرض معها، وفاض على قلبنا منها ارتياح لا ضجر فيه. قلت : ألا تغضبون ؟ قال : إن الغضب من فساد المزاج، وفساد المزاج من اختلال المعيشة وهذا لا وجود له بيننا.

قلت : أليس بينكم حسد وسلب وسرقة ؟

قال : إنا قطعنا ذرائع هذه الشرور، بأن جعلنا مال الله مشتركاً بين عباده، فترانا جميعاً نعمل فى مزارعنا، فما حصّلناه من خيرات الأرض أودعناه فى خزائن عامة، لكل عامل الحرية التامة فى أن يأخذ منها ما يريد فى أى وقت يريد. ولذلك بطل بيننا الميل للادخار، وبطل ما يتبعه من الغنى أوالفقر، وعلوّ البعض على البعض، وما يجر إليه ذلك من التعادى والتسافك.

قلت : وإلى أى مدى بلغت قوتكم الروحية ؟

قال : إلى حيث تكفى أحدنا أن يغمض عينيه، ويقطع خواطره ليسرى مع الأرواح المجردة فى عالمها. فنظرت إلى وجه صاحبى فى الحوت، وقلت : ألا تسمع ؟ فقال : يخيل إلى أنهم فى الجنة .. وصنعنا (بمعونتهم) زورقاً به بعض الزاد من الثمار الجافة .. وركبناه أياماً حتى

---

(١) وفى ذلك يقول الشاعر العربى :

ألا كل شىء ماخلا الله باطل ∴ وكل نعيم لا محالة زائل.

التقطتنا سفينة أنزلتنا فى سيسيليا .. رأينا معالم المدينة باهرة، لكننا لم نتنسم فيها نسمة ارتياح وطمأنينة. (بعد ذلك وصف للمدنية الحاضرة، وماديتها، وهمومها وآثامها ... : مادة بلا روح، شبح بلا حياة ... جياع لم تهيأ لهم فرص العمل ..)، وتبين لمدير الشرطة أننا غرباء بلا عمل، فأمر بترحيلنا إلى مصر، وأنزل معنا نحو الخمسين متشرداً من أمم مختلفة .. فلما شارفنا الإسكندرية قال صاحبى (وهو مغربى) : بماذا تقابل فى مصر هذه الطغمة المفسدة ؟ قلت : بالترحيب والحفاوة ...

وسألت صاحبى، ما رأيك فى جملة ما وقع لنا فاندفع ينشد :

جبت المخاوف والمخاطر ∴ فرويت ما لم يرو شاعر
وخرجت من ذا كله ∴ بحقيقة تغنى المكاثر
هى أن هذا الناس قد ∴ سحرتهم فتن سواحر
ظنوا السعادة فى التأ ∴ نق والتطرف والتفاخر
زهوا افتتان بالقشو ∴ ر ووقفة حول الظواهر
أما السعادة فهى ∴ أن تفتق الحجب السواتر
وتحصل السر الذى ∴ شُقَّت لطلبه المرائر
وتنال من معناك ما ∴ حُرِمَتْهُ همات قواصر
إن ترتقى بالروح حيث الحق عالى القدر سافر
حيث التفاضل تزدهى ∴ بثيابها القشب البواهر
فهناك فانشد قول من ∴ علم الحقيقة علم غابر
هذى السعادة فارجها ∴ واظفر بها إن كنت ظافر

فقلت : علام عولت إذا رجعت إلى وطنك ؟
قال : محاربة المدنية جهدى.
فقلت : لست من رأيك وأنشدته :

ضل أهل الألمعية ∴ فى علاج المدنية
هى من أقدم عهد ∴ عضلة العلم القوية
هى للجثمان غنم ∴ وهى للروح بلية
والذى قر عليه الر ∴ أى من أهل الروية
إنها شر ضرو ∴ رى لخير البشرية

قال : أصبت والله، فكم فى الحياة من شر ضرورى.

(٤٧)

وهذه فقرات من الوجدية الحادية عشرة :

قال الوجدان (أى وجدى) : إنه - وهو فى طريقه إلى هذه المدينة - وجد نفسه فى رياض زاهية، على نسق لم تر العين مثله فى الجمال .. ويستطرد قائلاً : وسرنا نخترق شوارع ما رأيت فى حياتى شوارع أوسع ولا أنظف ولا أجمل منها. تقوم على جوانبها قصور فى

صفاء اللؤلؤ، فما شككت أنى فى جنة الخلد .. وكنا كلما سرنا لاحت لنا مبان يعجز الخيال عن تصورها. وكنت أقرأ على أبواب كثيرة منها : «جامعة العلوم الدينية»، «جامعة العلوم الكونية» .. «مجمع علماء الاجتماع» ، «دار الكتب اللغوية» .. إلى غير ذلك مما لا يحصى كثرة. ومازلنا حتى دخلنا إلى قصر كأنه قطعة واحدة من المرمر الناصع البياض، فى وسط حديقة كبيرة، كأجمل ما تكون الحدائق. ودخلنا إلى بهو انتهى إليه الإبداع الخيالى، وإذا فى صدره شيخ .. وعن يمينه وشماله رجال لا يقلون عنه مهابة ووقاراً. وبعث معى الشيخ مرافقاً .. فقلت له : «أين موقع هذه المدينة يا سيدى؟» فقال ! سل عما تشتهى غير هذا. وكل ما أستطيع أن أقوله : إننا قوم سئمنا الأكاذيب، وأنفنا أن نعيش حياة تتناقض فيها قلوبنا وعقولنا، وتتعاكس أعمالنا وعلومنا، فاتحدنا – ونحن عدة آلاف – من جميع الأصناف، وقررنا الرحيل إلى بقعة من الأرض لا يهتدى إليها خيال .. وأنشأنا هذه المدينة على آخر ما سمحت به العلوم من حيث البناء والرواء، وجعلنا لها دستوراً من القرآن والسنة السمحاء[(١)]. ليس فينا إلا من شغفته الحقيقة حباً[(٢)]، وتيمته الكمالات عشقاً، فلم نجد مشقة فى القيام على أكمل الخطط الاجتماعية، فبلغنا فى سنين معدودة من الرقى ما يعد بجانبه أرقى ما وصلتم اليه انحطاطاً مخجلاً .. وقال : إننا بسيرنا على مقتضى معارفنا اتفقت سيرتنا مع النواميس التى وضعها الله لقيام العالم على خير ما يكون فزالت المصائب التى كان الإنسان يجلبها على نفسه بعصيانه لمقتضيات وجوده.. انقطعت لدينا جراثيم الأمراض .. وبلغ الأمر عندنا حده الطبيعى، فترى أحدنا يعمر من مائتين إلى ثلاثمائة سنة .. وقلت سطوات الخواطر والهواجس علينا، فعمرت صدورنا بالحكمة، فرأينا الحياة كما أرادها الله أن تكون هاشة باشة باسمة. أقول : إن مدينة (وجدى) كما صورها فكره وقلمه، مما يعجز الإبداع الخيالى عن تصورها، حتى أن من يراها لا يشك أنه فى جنة الخلد التى وعد الله عباده الصالحين. وما قامت هذه المدنية على هذا النحو إلا بدعائم من الدين والأخلاق والعلم. لقد اتفقت سيرة ساكنيها مع النواميس التى وضعها الله لقيام عالم فاضل، فزالت عنها الشرور التى يجلبها الإنسان على نفسه بخروجه على هذه النواميس : لقد تحرر القوم من سطوات الأوهام والهواجس والقلق وغيره مما يحول حياة الإنسان إلى جحيم .. ويكفيهم توفيقاً أنهم استمدوا دستورهم من الكتاب والسنة. ومن تمسك بهما لن يضل أبداً. وكيف يضل، وهو يستضىء بنور الله، ويهتدى بهدى رسول الله ! إن وجدى مثل حى للعالم المسلم العامر القلب بالإيمان، والمتزود بخير زاد : زاد التقوى والإحسان والعلم جميعاً. وهو نفسه مثل كريم لمن اتفق عمله وسلوكه مع دينه وعلمه. وهو دائماً – الداعى إلى الأخذ بالأسباب ومن بينها «العلم» الذى أمرنا الله به. «ختامه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون» (٢٦ من سورة المطففين).

---

(١) تأمل قوله : «دستورا مستمداً من القرآن والسنة». فهذا وحده يكفى لقيام المدينة الفاضلة. إن الإسلام فى جوانبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية يعنى – فى قمة ما يعنى – الشورى والتكافل .. إلى آخره.

(٢) الحقيقة – هنا – تعنى المعنى الصوفى الفلسفى للكلمة «واتقوا الله، ويعلمكم الله» (٢٨٢ – البقرة).

الفهــرس

كتب للمؤلف (٭)

فى النظم الإسلامية - وحقوق الإنسان

الإسلام وحقوق الإنسان – دراسة مقارنة.	الطبعة الثانية ١٩٨٤
الإسلام والإدارة والاقتصاد – مع المقارنة بالنظم المعاصرة	١٩٧٨
الإسلام والدولة – دراسة مقارنة ومستقبلية	١٩٨٢
الإسلام وحقوق الإنسان – غير المسلمين فى الدولة الإسلامية	١٩٨٧
الإسلام وحقوق الإنسان – غزوات الرسول وسراياه – دروس مستفادة	١٩٨٨
الإسلام وحقوق الإنسان – الجهاد	١٩٨٩
الإسلام والقضاء مع دراسة متعمقة فى «العمل القضائى»	١٩٩٣

كتب أخرى

صفحات من اليوميات – ترجمة ذاتية	١٩٩١
تراجم (رواد الفكر الإسلامى – فى العصر الحديث).	
١ – محمد فريد وجدى – وحسن استعمال الحرية	١٤١٥ – ١٩٩٤

تحت الإعداد - بإذن الله وتوفيقه (فى التراجم - أيضاً)

٢ – رفاعة الطهطاوى
٣ – جمال الدين الأفغانى
٤ – محمد عبده
٥ – رشيد رضا
٦ – مصطفى عبد الرازق
٧ – عبد الوهاب عزام

فى القرآن الكريم

مع الله – فى كتابه وسنة نبيه

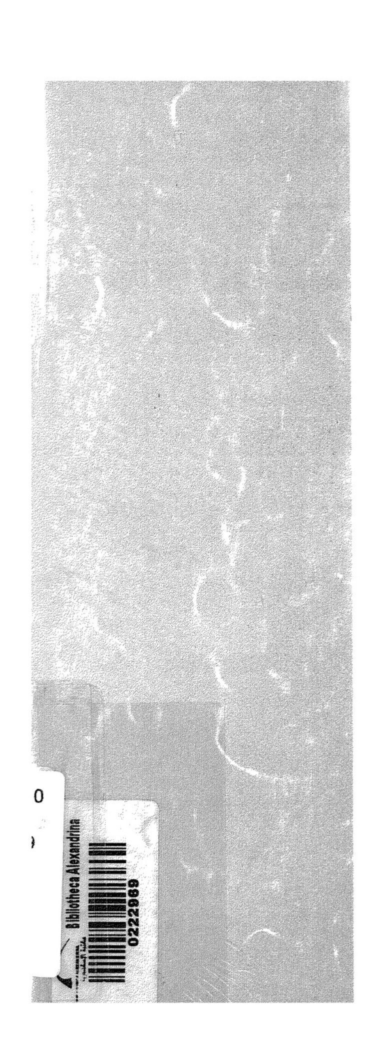
فى السياسة والدستور

مصر والدستور – تاريخ ومواقف

وما توفيقى إلا بالله.

(٭) للمؤلف كتب وبحوث، فى القانون الإدارى وغيره، مبينة فى نهايات بعض الكتب سابقة الذكر وذلك فضلاً عن مذكرات للطلبة فى القانون الإدارى والقانون الدستورى، وغيرهما

تطلب لكتب المذكورة من دار الفكر العربى – النهضة المصرية – دار حراء – عالم الكتب المجلد العربى – دار الدعوة – بمحرم بك – الإسكندرسة وغيرها



رقم الإيداع ٩٤/٩٣١٨

الثمن ٦ جنيهات